أجاثا كريستي

الشاهِد الصّامِت

دار النجمة للنشر والتوزيع

الشّاهد الصامِت

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الشّاهد الصامِت

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

في اليوم الأول من شهر أيّار (مايو) تُوفّيت الآنسة أراندل، ورغم أن مرضها كان قصيراً إلا أن موتها لم يُثِر دهشة أحد من سكان قرية ماركيت بيسنغ حيث كانت تقيم منذ كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها، وذلك أن إميلي أراندل كانت قد تجاوزت السبعين من عمرها ومعتلة الصحّة منذ سنوات، بل إنها كانت قد أشرفت على الموت منذ عام ونصف إثر نوبة شبيهة بتلك التي قضت عليها مؤخّراً.

ولكن إذا كان موت الآنسة أراندل لم يدهش أحداً فإن شيئاً آخَر هو الذي أثار دهشة الناس. لقد أهاجت وصيّتها فيمن عرفوا بفحواها العديد من المشاعر المتباينة، مثل الدهشة والإثارة والفرحة والسخط الشديد والغضب واليأس... ثم الإشاعات والقيل والقال؛ فخلال أسابيع متتابعة بل شهور متصلة لم يكن لأهل ماركيت بيسنغ حديث إلا عن تلك الوصية، وكلٌ يحاول أن يعقّب بكلمة أو يضيف شيئاً من عنده، ابتداء من السيد جونز البقال الذي قال: "إن الدم لا يتحوّل إلى ماء"، إلى الآنسة همفري الموظّفة بمكتب البريد التي قالت: "صدّقوني، لا بدّ وأن في الأمر سراً خفياً".

والذي أضفى على الموضوع لهيباً من النار هو أن الوصية

حُرّرت يوم الحادي والعشرين من شهر نيسان (أبريل)، أي قبل وفاة صاحبتها بعشرة أيام، أضف إلى ذلك أن أقارب إميلي أراندل المقرّبين كانوا يقيمون معها قبل ذلك التاريخ مباشرة بمناسبة عيد الفصح ممّا أفسح المجال لثرثرة بدّدت عن ماركيت بيسنغ ما أصاب حياتها من رتابة وملل.

وكان مفروضاً في الآنسة لاوسون أن تكون هي الوحيدة التي تعرف حقيقة الموضوع وخباياه بحُكم أنها وصيفة الآنسة أراندل، ولكنها اعترفت بأنها كغيرها ذُهلت عندما فضّت الوصية وعرفت بفحواها، وطبعاً كان الكثيرون لا يصدّقون كلمة من مزاعمها.

ومهما يكن من الأمر فقد كانت الآنسة أراندل، المرأة التي ماتت، هي الوحيدة التي تعرف دوافعها الخفيّة التي اضطرّتها إلى تحرير تلك الوصية، ولكنها دُفنت في الثرى ودُفن سرّها معها.

* * *

في يوم الجمعة السابق لعيد الفصح كانت الآنسة أراندل واقفة في بهو بيتها، فيلاّ ليتل غرين، تُصدر تعليماتها إلى الآنسة لاوسون، فقالت تسأل وصيفتها: كيف وزّعت الغرف بين ضيوفنا يا آنسة لاوسون؟

فأجابتها قائلة: أرجو أن لا يكون قد جانبني الصواب فيما فعلت. لقد خصصت الدكتور تانوا وزوجته بغرفة البلوط، وتريزا بالغرفة الزرقاء، أما السيد شارل فسأتركه في غرفة الأطفال.

فعقّبت الآنسة أراندل قائلة: أنزلي تريزا في غرفة الأطفال، أما السيد شارل فأعطيه الغرفة الزرقاء.

فاعتذرت الآنسة لاوسون ووعدت بأن تبدّل الغرفتين، ثم

غمغمت برقّة قائلة: يؤسفني أن الصغار الأعزاء لن يحضروا!

وكانت الآنسة لاوسون تحب الأطفال وتعرف كيف تُحسن معاملتهم، فقالت ربة المنزل: على أية حال حسبنا أربعة من الضيوف. وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: إن بيلا تفسد أطفالنا بالإسراف في تدليلهم، فهم نادراً ما ينفّذون ما يُطلَب منهم.

- إن السيدة تانوا مثال للأم المتفانية.

فقالت الآنسة أراندل: أجل، إنها سيدة عظيمة.

قالت الآنسة لاوسون: ولكن لا شكّ في أن الحياة عصيبة عليها وهي تقيم في تلك المنطقة الهمجية، في أسمرة.

فهزّت الآنسة أراندل كتفيها باستسلام وهي تقول: هي التي اختارت سكنها هناك. ثم أردفت الآنسة أراندل تقول بأنها ذاهبة إلى القرية كي تبتاع حاجات عطلة الأسبوع، فقاطعتها الآنسة لاوسون قائلة: ولِمَ لا تستريحين أنت وأذهب أنا بدلاً منك؟

- إن عيبك يا عزيزتي هو أنك وديعة غير حازمة، وروجرز في حاجة إلى كلمة تأنيب عنيفة. ولكن أين بوب؟!

فأقبل الكلب يجري عند سماع اسمه وأخذ يتواثب حول قدمَي سيّدته ويهزّ ذيله، وما هي إلا لحظات حتى غادرت الآنسة أراندل الفيلاّ وكلبها الصغير المدلّل في أعقابها. ووقفت الآنسة لاوسون أمام الباب تتبعها بنظراتها ومن عينها تطلّ نظرة بعيدة شاردة، ثم سمعت الآنسة لاوسون صوتاً نسائياً من خلفها يقول: لم أعثر على أكياس الوسائد في موضعها المألوف يا آنسة لاوسون.

- حقاً؟ ما أغباني! لا بدّ أنني أودعتها مكاناً آخر. سآتيك بها حالاً.

ثم رجعت الآنسة لاوسون إلى داخل البيت تباشر أعمالها المنزلية المعتادة والخادمة إيلين تهرول في أعقابها.

* * *

أخذت الآنسة أراندل تشقّ طريقها في شارع القرية بعظمة وخُيلاء وأصحاب المتاجر يسرعون إلى استقبالها باحترام أو يومِئون إليها بالتحية بتقدير، ولا عجب في هذا؛ فهي ربة ليتل غرين وأقدمُ سكان القرية وسليلةُ أسرة عريقة ذات شأن. وأخذت هي تصدر إليهم تعليماتها أو توجّه إليهم لومها، فالزبد الذي أرسلوه إليها بالأمس لم يكن طازجاً واللحم كان من صنف رديء، فأخذ أصحاب المتاجر يعتذرون ويعِدون بأن لا تتكرّر منهم تلك الأخطاء، وأما كلبها فكان يجري وراءها مرِحاً يتواثب وكأنه يشعر بأن له شأناً يختلف عن شأن سائر كلاب القَرية.

وفي متجر البقّال التقت إميلي أراندل بصديقتها كارولين، وهي سيدة من نفس الطراز ذات عظمة وأُبّهة ملوكية، فتبادلت المرأتان التحية بمودة، وتساءلت كارولين بيبودي قائلة: هل تنتظرين قدوم أحد من أقاربك بمناسبة عيد الفصح؟

- نعم، جميعاً؛ تريزا وشارل وبيلا.

- إذن فقد رجعت بيلا إلى الوطن! هل جاء زوجها معها؟

- إنه بصحبتها.

ثم تبادلتا عبارات وجيزة مقتضبة، ولكن كلتيهما كانتا تعرفان ما ينطوي وراءها؛ وذلك أن بيلا وينتر، ابنة أخت إميلي أراندل، تزوجت يونانياً على غير رغبة من أهلها ثم رحلت معه إلى خارج البلاد، والزواج بيوناني أشبه بالعار عند الإنكليزي الأصيل. وقالت

الآنسة بيبودي مستطردة: إن زوجها رجل ذكي، كما أنه جذّاب لطيف المعشر.

فوافقتها الآنسة أراندل قائلة: إنه مهذّب وظريف فعلاً.

وحين خرجتا إلى الطريق تساءلت كارولين بيبودي قائلة: ما هذا الذي بلغني عن خِطبة دونالدسون لتريزا؟

فهزّت الآنسة أراندل كتفيها بضيق وقالت: إن شباب هذه الأيام يفعلون ما يحلو لهم، وأغلب ظني أنها خطبة طويلة ممتدّة؛ فهو لا يملك شيئاً من المال.

- ولكن تريزا تملك ثروة لا يُستهان بها!

فقالت الآنسة أراندل بجفاء: وهل يرضى الرجال بأن يعيشوا على مال زوجاتهم؟!

- إنهم لا يستنكفون أن يفعلوا ذلك في هذه الأيام! نحن، أنت وأنا، من جيل بائد انقرضت تقاليده يا إميلي.

- على أية حال فهو طبيب بارع.

وبعد بُرهة قصيرة من الصمت قالت الآنسة بيبودي: إذا جاء ذلك الأحمق، شارل، فابعثي به إليّ ليزورني.

- سأُبلغه دعوتك طبعاً.

ثم تبادلت المرأتان التحية مرّة أخرى وانصرفت كل منهما إلى شأنها. لقد كانت بين المرأتين معرفة وثيقة يرجع عهدها إلى خمسين سنة مضت، وكانت الآنسة بيبودي لا تجهل ما تخلّل حياة الجنرال أراندل، والد إميلي، من مخاز ونكبات، وكانت تعرف كيف أن زواج توماس أراندل أصاب أخواته بصدمة هزّت

أعماقهن، ولكن المرأتين ما كانتا لتتبادلا كلمة واحدة عن ذلك الماضي المتّسم بالعار، وإن كان في داخل كل منهما نقمة على الجيل الجديد وما يتورّط فيه من رعونة وطيش. فمثلاً تريزا منذ أن آلت إليها ثروتها في سن العشرين انقلبت إلى فتاة متهوّرة تستخفّ بكل الأخلاقيات وتظهر صورها في الصحف دائماً، أما عن خطبتها للدكتور دونالدسون فقد أثارت نقمة إميلي؛ فهو ليس بالرجل اللائق لفتاة من أسرة أراندل العريقة، كما أن تريزا لا يمكن أن تصلح زوجة لمثل ذلك الطبيب الريفي.

وتنهّدت إميلي حين انتقلت بخواطرها إلى بيلا. إنها لا تكاد تأخذ شيئاً على بيلا؛ فهي امرأة صالحة وزوجة شديدة الغباء، وأشدّ ما يؤخَذ عليها أنها تزوّجت يونانياً. ورغم أنه شاب مهذّب حلو الحديث بارع في مهنته إلا أن إميلي كانت تنفر منه ولا تطمئن إلى رقّته ونعومته، لذا لم تكن تحب طفليه لأنهما ورثا عنه لطفه وجاذبيته. وأخيراً شارل ابن أخيها. إنه رقيق مرح لا تنفكّ الابتسامة تتخايل على شفتيه وكلماتُه تسيل عذوبة ودعابة، ولكنها لا تثق به على الإطلاق.

ثم تنهّدت بعمق؛ فقد أحست إميلي أراندل بأنها شاخت فجأة وأن العمر تقدّم بها عشرات الأعوام، شعرت بأن العمر يوشك أن ينتهي وأنها أوشكت أن تبلغ نهاية المطاف، ثم قفزت إلى ذهنها الوصية التي حرّرتها منذ أعوام. لقد أوصت فيها للخدم وبعض الأعمال الخيرية بقدرٍ ضخم من المال، ثم تُقسّم ثروتها الطائلة بالتساوي بين أقاربها الثلاثة، ولدَي أخيها شارل وتريزا وابنة أختها بيلا. ومضت تسأل نفسها عمّا إذا كانت توجد وسيلة تمنع زوج بيلا اليوناني من الاستيلاء على ثروة زوجته وتبديدها، لا بدّ أن تتصل بمحاميها بيرفيس وتستفسر منه عن هذا.

ثم انتزعت نفسها من خواطرها حين أشرفت على فيلاّ ليتل غرين، وسألت عمّا إذا كان أحد من أقاربها قد وصل. وكان الأخوان شارل وتريزا قد أتيا بالسيارة، أما بيلا وزوجها الدكتور تانوا فقد وصلا بالقطار بعد ذلك بقليل.

أقبل شارل عليها يقول بلهجته المرحة المألوفة: كيف حالك يا عمّتي إميلي؟ إن صحتك على ما يرام. ثم مال إليها فطبع قبلة على وجنتها، أما تريزا فاكتفت بأن قالت: كيف حالك يا عمّتي؟

فتأمّلت إميلي ابنة أخيها. إنها تبدو مُنهَكة وحول عينيها هالة سوداء داكنة، كل ذلك من أثر السهر! وتناولوا الشاي في قاعة الاستقبال وأخذت بيلا تنظر إلى ابنة عمّها تريزا باهتمام محاولة أن تعي في ذهنها طراز ملابسها؛ فقد كانت بيلا مولعة بالثياب ولكنها كانت متجرّدة من سلامة الذوق وحُسن الاختيار، وحتى الثياب الغالية كانت تبدو علها غير مهندمة، في حين كانت تريزا بادية الأناقة دائماً. أما زوج بيلا، الدكتور تانوا، فمضى يتحدّث إلى الخالة إميلي بصوته العذب النبرات وأسلوبه المهذّب، أما الآنسة لاوسون فأخذت تروح وتغدو وتشغل نفسها بعشرات من المهام الصغيرة، وكان شارل يسرع إلى معاونتها ولكنها كانت تشيح عنه بوجهها، ولم يتلقّ منها كلمة شكر واحدة.

وحين فرغوا من الشاي وخرجوا يتجوّلون في الحديقة مال شارل إلى أخته قائلاً لها: إن الآنسة لاوسون لا تميل إليّ.

فقالت تريزا متهكّمة: هذا شيء عجيب! فتلك أول مرّة لا تقع فيها امرأة في فتنة سحرك وجاذبيتك!

فارتسمت على شفتَي شارل ابتسامة عريضة وقال: من حُسن حظي أن تلك المرأة هي لاوسون.

وأخذت الآنسة لاوسون تسير في الحديقة مع بيلا وراحت تستفسر منها عن تأمّل ثياب تريزا، ثم استرسلت في الحديث عن صغارها، فأسعد بيلا أن تجد في ميني لاوسون رفيقة تُجيد الإنصات. وبعد قليل أقبل شاب أشقر الشعر ذو وجه جاد على عينيه نظارة من طراز البانس نيه، فرحّبت به الآنسة أراندل بمودّة وحيّته تريزا بقولها: مرحباً يا ريكس.

ثم تأبّطت ذراعه وأخذا يتمشّيان مبتعدَين، فتبعهما شارل ببصره مقطباً جبينه، ثم ما لبث أن انسحب متّجهاً إلى البستاني العجوز الذي كان يعرفه مذ كان طفلاً صغيراً وأخذ يروّح عن نفسه بتبادل الحديث معه. وحين رجعت الآنسة أراندل إلى البيت وجدت شارل يلاعب كلبها بوب. كان الكلب واقفاً على رأس الدرَج وكرته الصغيرة بين أسنانه وهو يهزّ ذيله بابتهاج، فناداه شارل قائلاً: هيا، هيا يا صديقي العزيز!

فوقف بوب على قائمتيه الخلفيّتين ووضع الكرة على حافة رأس الدرَج ثم دفعها بقدمه، فأخذت تنحدر على الدرَج درجة درجة والكلب يتواثب أعلى الدرَج فرحاً حتى استقرّت الكرة في يد شارل عند أسفل الدرَج، ثم قذف شارل بالكرة إلى بوب فتلقّفها بفمه، ثم أعادها إلى شارل كما فعل من قبل، فقال شارل ضاحكاً: هذه هي لعبته المفضلة الأثيرة عنده.

فابتسمت العمّة إميلي وقالت: لو أنه أمضى ساعات يمارس هذه اللعبة لما ضاق بها.

ثم ذهبت إلى قاعة الاستقبال ومعها شارل وبوب يلاحقهما بنباحه الحزين لأنه حُرم من لعبته الأثيرة، ثم نظر شارل من النافذة إلى الحديقة وقال: تلك تريزا مع صاحبها ذلك الطبيب الأبله!

فقالت عمّته متسائلة: أتظن أن تريزا جادة في هذه العلاقة؟

- إنها مهووسة به، وإن كنت لا أرى فيه شيئاً مثيراً. لعلها مفتونة بنظراته العميقة إليها فهذا شيء جديد عليها، وإن كنت أعتقد أنه يفكّر فيها بأسلوبه العلمي باعتبارها عيّنة علمية جديرة بالفحص والدراسة، ولكن المسكين لا يدري أن تريزا مسرفة لا يسدّ جشعَها كنزٌ من المال.

فقالت الآنسة أراندل بجفاء: إنها تستطيع أن تغيّر نمط حياتها إذا شاءت. على أية حال فإن لتريزا دخلاً لا يُستهان به.

- بالطبع، إن دخلها كبير.

ثم نظر شارل إلى عمّته نظرة يطلّ منها الشعور بالذنب؛ فقد كان يعلم أن ذلك الدخل الكبير المزعوم كاد أن ينضب.

* * *

في ذلك المساء جلسوا حول المائدة يترقّبون بصبر نافد وصول شارل، وأخيراً جاء شارل مهرولاً ووجه محمرّ محتقن، ثم قال معتذراً: آسف لتأخّري يا عمّتي، ولكن كلبك اللعين بوب كاد يتسبب في دقّ عنقي. لقد ترك كرته عند رأس الدرَج فدُست عليها فانزلقت قدمي وكدت أسقط إلى أسفل الدرَج ويُدق عنقي.

فانحنت الآنسة لاوسون تربت على ظهر بوب وهي تقول: يا لك من شقي سفّاح! لماذا تركت الكرة عند رأس الدرَج؟

فنظر إليها بوب باحتقار ثم أشاح عنها مبتعداً وكأنه فهم ما تفوّهت به من زجر وتأنيب، وقالت الآنسة أراندل: هذا شيء خطير جداً، خذي الكرة يا ميني وأخفيها في الدُّرج كالمعتاد.

فهُرعت الآنسة لاوسون إلى الخارج لتبحث عن الكرة. وعلى العشاء احتكر الدكتور تانوا الحديث فأخذ يسرد حكايات طريفة عن مدينة أسمرة. ثم أوى الجميع إلى فُرُشهم مبكّرين، وحملت الآنسة لاوسون إلى غرفة نوم مخدومتها حزمة الصوف ونظارتها وحقيبة الأشغال وكتاباً، ثم قالت لها: إن الدكتور تانوا لطيف جداً وحديثه شائق طريف.

فهزّت الآنسة أراندل كتفيها باستخفاف وقالت: هل أخبرت إيلين بأن توقظني في السادسة والنصف؟

- نعم، وطلبت منها أن لا تجهّز لك الشاي.

- انزعي الطوق عن رقبة بوب.

فأسرعت الخادمة الخاضعة تلبّي رغبة سيدتها باستسلام، ثم أرادت أن تجامل مخدومتها فقالت: الحق أن أقرباءك قوم ظرفاء.

- ظرفاء؟ إنهم يتظارفون معي بقدر ما يطمعون في انتزاع شيء من المال منّي.

- آه يا عزيزتي! أنا أظن أن...

- أنت تظنين، أما أنا فأعرف أنهم حريصون على زيارتي في الأعياد لكي يطلبوا منّي شيئاً من المال، وأتساءل أيهم سيسبق غيره إلى المطالبة.

ولم يمتدّ التساؤل طويلاً بالآنسة أراندل؛ ففي صباح اليوم التالي حينما كانت الآنسة أراندل منهمكة في تدوين بعض حسابات النفقات دخل عليها شارل في نحو العاشرة صباحاً وهو يقول: أنا آسف لأنني لم أشاركك طعام الإفطار يا عمّتي، ولكنني لم أَنم

إلا قليلاً، أما تريزا فكانت أسوأ حالاً إذ لم يغمض لها جفن طوال الليل.

فقالت الآنسة أراندل بجفاء: الناس لا يبالون بمشاعر الخدم هذه الأيام ويُرهقونهم بإعداد الإفطار عشرات المرات في اليوم الواحد لأن كل واحد يتناول طعامه بمفرده، ولكنني لا أُقرّ هذه المعاملة.

فقال شارل مجاملاً: أنت على حق في هذا يا عمّتي، هذا هو الشعور الإنساني النبيل حقاً!

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامته الجذّابة المألوفة، فوجدت الآنسة أراندل نفسها تبتسم هي الأخرى على الرغم منها، ثم قال: والآن يؤسفني أن أزعجك يا عمّتي، ولكنني في أشدّ حالات الإفلاس، فهل يمكنك أن تساعديني بشيء من المال؟ مئة جنيه مبلغ كاف جداً وكفيل بأن ينقذني من أزمتي.

ولكن سمات وجهها لم تكن مشجّعة، وقد شاعت في ابتسامتها بوادر الامتعاض، كما أنها لم تتردّد لحظة واحدة في أن تصارحه بما يدور في نفسها فقالت بإيجاز إنها لن تعطيه حتى ولا بنساً واحداً، وفي تلك اللحظة دخلت الآنسة لاوسون إلى القاعة تحوم هنا وهناك كعادتها، فانقطع الحديث وغادر شارل الغرفة ساخطاً.

* * *

الفصل الثاني

صعد شارل إلى غرفة أخته متضرّج الوجه احمراراً، وكانت تريزا لا تزال في فراشها متكاسلة تتثاءب وتتمطّى، فقال لها بنبرة توحي بما يعتمل في صدره من الضيق: لقد حاولت أن أتقدّم عليك خطوة ولكنني فشلت.

فتساءلت تريزا قائلة: ماذا تقصد بأنك حاولت أن تسبقني؟

- لقد طلبت من عمّتي مئة جنيه.

- حقاً؟ إذن لقد سبقتني! وماذا كان جوابها؟

- الرفض، الرفض الحاسم البات. لقد قالت بصراحة تامة ودون أية مواربة بأنني لا أحبها وأنه لولا أموالها لما فكّرت يوماً في زيارتها، وأنه يجب أن انزع الأوهام من رأسي وأن أعرف أنها لن تمنحني بنساً واحداً. ثم قالت إنها تعرف أن أسرتها المحبّة الوفية تترقّب موتها بصبر نافد ليستولوا على ثروتها، ولكن أسرتها سوف تُصاب بصدمة لا تفيق منها.

فقالت تريزا: أما كان أولى بك أن تتريّث يوماً أو يومين؟

- لقد خشيت أن تسبقيني أنت أو تانوا إليها. والآن يجب أن تعلمي أن العمّة إميلي ليست بالمرأة البلهاء يا عزيزتي تريزا، إنها تدرك حقيقة مشاعرنا تجاهها.

فقالت تريزا: وهل تحسب أنني كنت أعتقد أنها بلهاء؟ إنها امرأة ذكية ماكرة.

فضحك شارل ثم قال مستطرداً: لقد حاولت أن أُثير مخاوفها وأهدّدها تهديداً خفياً.

- حقاً؟! وماذا قلت لها؟

- لقد قلت لها إن سلوكها هذا يعرّضها للخطر وإنها حين تموت لن تأخذ أموالها معها.

فقالت تريزا: يا لك من أحمق يا شارل! كيف تجسر على أن تواجهها بهذا الحديث؟

- أنا لست بالأحمق كما تظنين بل أنا خبير بعلم النفس، ومثل هذا الإيحاء قد يحملها على أن تعطينا بعض أموالها. إن الخوف من الموت أو الخطر يجعلها سخية لا تضن بمالها.

- وهل أدركَت ما ترمي إليه؟

- لا أدري! كل ما قالته هو أنها تعرف كيف تحافظ على سلامتها وكيف تتوقى الأخطار.

فعادت تريزا تقول بلهجة غاضبة: الحق أنني لم أرَ مَن هو أشدّ حماقة منك يا شارل!

- لقد أضرّ الإفلاس بي، وكم أتمنّى أن استمتع بحياتي! إن تلك العجوز لا تكاد تنفق عُشر دخلها، ومن حقنا أن نستمتع بأموالها من الآن. ألسنا نحن ورثتها الوحيدين؟ ثم ما يدرينا أنها قد تعيش حتى تبلغ المئة عام؟ لو أنني وجدت وسيلة كي...

وأمسك عن إكمال عبارته، ولكن تريزا نظرت إليه بتفهّم واضح فقال لها: ألا تتمنين هذا أنت أيضاً؟

فأومأت برأسها موافقة دون أن تتفوه بحرف واحد. وبعد فترة صمت قصيرة قالت تريزا: إن ريكس هو الوحيد الذي يستطيع أن يفعل هذا بيسر وسهولة لو أنني استطعت أن أُقنعه بأنه عالِم ضليع وأن في وسعه أن يصل بأبحاثه إلى اكتشاف المعجزات العلمية إذا توافر له المال.

فقال شارل متسائلاً: أتظنين أن بيلا وتانوا قد يظفران منها بشيء من المال قبل رحيلهما؟

فقالت تريزا: إن بيلا لا يهمّها المال فيما أعتقد، فها أنت تراها ترتدي ما يكاد يشبه الخِرق البالية.

- هل نسيت أطفالها؟ لا شكّ في أنها بحاجة إلى المال لتلحقهم بمدارس راقية، ثم إن زوجها جشع طمّاع وأغلب ظنّي أنه بدّد ثروتها في المضاربات.

فردّدت تريزا وقالت موافِقة: صدقت، وما من شكّ في أنه سيحاول أن ينال شيئاً قبل رحيله.

وحين نزل شارل إلى الردهة جاء بوب يتواثب عند قدميه وهو ينبح نباحاً متواصلاً بصوت خافت ثم يجري خطوات باتجاه قاعة الاستقبال ويعود مرّة ثانية إلى شارل وينبح من جديد، فنظر إليه شارل باستغراب وقال: ما الذي تريده يا تُرى؟!

ثم عاد الكلب يتردّد بين باب قاعة الاستقبال وقدمَي شارل ونباحه متواصل لا يكفّ عنه، فتبعه شارل إلى القاعة، ثم توقّف بوب عند مكتب في أحد الأركان وأخذ ينبح ويقف على قائمتيه،

فقال شارل يخاطب الكلب: ماذا تريد يا بوب؟ هل يوجد شيء يهمّك في أدراج المكتب؟!

ثم فتح دُرج المكتب فلم يجد فيه إلا ظرفاً تكدّست فيه أوراق نقدية، فتردّد شارل بُرهة ثم نظر ناحية باب الغرفة فلم يجد أحداً، فأسرع فتناول خمسة جنيهات وثلاثة شلنات دسّها في جيبه، ثم أعاد الظرف مكانه وأغلق الدُّرج كما كان وقال لبوب: آسف يا صديقي، إن ما في الدُّرج يهمّني أنا ولا يعنيك أنت في شيء!

ولكن بوب استمرّ ينبح ويقف على قائمتيه، ففتح شارل الدُّرج الثاني فوجد في أحد أركانه الكرة الصغيرة التي اعتاد بوب أن يلعب بها، فأخذها شارل وهو يقول: آه! إذن هذا هو ما كنت تبحث عنه.

ثم ألقى بالكرة إلى الكلب فتلقّفها بين أسنانه وأسرع إلى الخارج، وما هي إلا لحظات حتى تردّد صوتها وهي تنتقل من درجة إلى درجة فوق الدرَج، ثم خرج شارل إلى الحديقة يتمشى قليلاً لأن الجو كان لطيفاً رائعاً. وفي الحديقة كانت الآنسة أراندل جالسة على أحد المقاعد والدكتور تانوا بجانبها يفيض في الحديث عن التعليم في المدارس الإنكليزية ويُبدي أسفه لأن حالته المالية لا تُتيح له أن يُلحق أولاده بتلك المدارس لارتفاع أجورها، فانضمّ إليهما شارل وساهم في الحديث، ولكنه ما لبث أن حوّل تيّاره إلى ناحية أخرى وقد أدرك ما يرمي إليه الدكتور تانوا الماكر الخبيث بالحديث في هذا الموضوع. وكانت إميلي أراندل تبتسم راضية مستمتعة بتلك المناورات التي تجري أمامها.

وبعد ظُهر ذلك اليوم جاء الدكتور دونالدسون يدعو تريزا

إلى نزهة بسيارته الصغيرة، فذهب بها إلى غابة تقع في أطراف القرية، ثم تركا السيارة وأخذا يتجوّلان في أرجاء الغابة. ولم يكن الحديث الذي دار بين هذين المحبَّين غرامياً وإنما كان حديثاً علمياً بحتاً؛ فقد أخذ ريكس يفيض في الكلام عن أبحاثه وتجاربه وتريزا لا تفتأ تعقّب بكلمات الإعجاب والتقدير محاولة أن تملأ حبيبها زهواً واختيالاً. وفجأة قال لها دونالدسون: آسف جداً يا تريزا، أظن أنني أضجرتك بهذا الحديث العلمي.

فقالت وقد ملأت وجههَا ابتسامةٌ عريضة فاتنة: بل لقد أدركت الآن أنك عالِم ضليع وأنك في طريقك إلى المجد والشهرة.

ثم أخذت تنصت باهتمام إلى ما يسرده عليها من أخبار أبحاثه وتجاربه. وكان أصدقاء تريزا في عجب من أمرها، كيف تطيق تلك الفتاة اللاهية العابثة تلك الأحاديث العلمية الجافة؟! وكيف تحب رجلاً مثل ريكس ليس له همّ إلا البحث العلمي؟

ثم قالت تريزا: من المحزن أنه ليس لديك مال يعينك على الاستمرار في أبحاثك يا ريكس!

ثم أردفت وهي تتنهّد بعمق قائلة: آه، لو أن العمّة إميلي ماتت لآلت إليّ ثروة كبيرة، ولبادرت إلى الزواج بك في الحال ولوضعت ثروتي كلها رهن أبحاثك وتجاربك! أنت رجل عبقري وافتقارك إلى المال هو العقبة الوحيدة التي تسدّ أمامك الطريقَ إلى المجد.

فعقّب الدكتور دونالدسون قائلاً: عمّتك يمكن أن تعيش عشرات الأعوام ما دامت تُعنى بنفسها.

فتنهدت تريزا مرّة أخرى وغمغمت قائلة: أعرف هذا، وذلك هو الشيء الذي يؤسَف له.

وفي الوقت الذي كان يدور فيه هذا الحديث بين تريزا وخطيبها ريكس دونالدسون في الغابة كان يدور حديث آخَر بين الدكتور تانوا وزوجته بيلا في غرفة نومهما، حيث كان يقول لها: لقد مهّدت أمامك الطريق، والآن حان دورك أنت.

ثم حدّثها عمّا دار بينه وبين إميلي بشأن التعليم في المدارس الإنكليزية وكيف أن دخله المحدود لا يُتيح له أن يهيّئ لأولاده تلك الميزة، فأجابته بيلا قائلة: ولماذا فعلت ذلك؟ أنا لا أحب أن أطلب من خالتي شيئاً من المال.

- ولِمَ لا؟ إنها واسعة الثراء ويمكنها أن تنفق حيث تشاء. ألم نأتِ إلى زيارتها من أجل هذا؟

فنظرت إليه بيلا بدهشة وقالت: لم يجرِ هذا في خاطري قطّ! لقد جئت لزيارتها لأنني أحبها ولأنها وحيدة بحاجة إلى مَن يؤنس وحدتها في عيد الفصح.

فمال إليها تانوا وقال: هل نسيت أنه يجب أن نهيّئ لأولادنا حياة مترفة يا بيلا؟

- ولكنني أكره أن أسألها شيئاً.

وظلّت بيلا تعترض وتُبدي تمنّعاً وتانوا يلاطفها ويحاول أن يستميلها إلى رأيه، وأخيراً قالت باستسلام: حسناً، سأحاول أن أسألها منحة صغيرة.

ولكنها تفوّهت بهذه الكلمات على مضض وكره.

* * *

الفصل الثالث

كان ذلك بعد ظهيرة يوم الثلاثاء، وكان الباب الخلفي للبيت مفتوحاً والآنسة أراندل واقفة على عتبته تلاعب كلبها فتقذف بالكرة إلى الحديقة فينطلق وراءها، ثم قالت الآنسة أراندل تخاطب كلبها العزيز: مرّة واحدة فقط ثم أنصرف إلى شأني يا بوب.

ورمت بالكرة بعيداً فجرى الكلب وراءها كي يستعيدها، ثم انحنت الآنسة أراندل فالتقطت الكرة من عند قدميها حيث جاء بها بوب ووضعها، وبعد ذلك دخلت إلى البيت وبوب يجري في أعقابها، فدخلت إلى غرفة المكتب فوضعت الكرة في أحد الأدراج وردّته مكانه وبوب ينظر إليها بأسى لأنه حُرم من لعبته الأثيرة، ثم نظرت الآنسة أراندل إلى الساعة فوجدتها تشير إلى السادسة والنصف فقالت: والآن لا بدّ أن نستريح يا عزيزي بوب قبل أن نتناول العشاء.

ثم صعدت إلى غرفتها وبوب وراءها وارتمت متهالكة على الأريكة وبوب عند قدميها، ثم تنهّدت الآنسة أراندل بارتياح ظاهر لأن اليوم هو الثلاثاء وغداً سيرحل ضيوفها جميعاً وتستريح، ولم تملك إلا أن قالت: لقد بدأت الشيخوخة تدبّ إليّ، فلم أجد أُنساً بالصحبة وأصبح صدري يضيق بالناس وثرثرتهم.

ثم أطبقت عينيها وهي راقدة مكانها غارقة في خواطرها. وبعد نصف ساعة جاءت إليها خادمتها إيلين تحمل إليها إبريقاً من الماء الساخن، فنهضت فغسلت يديها ووجهها وتهيّأت للعشاء. وكان الدكتور دونالدسون مدعوّاً لتناول العشاء معهم في تلك الليلة، وقد رحّبت إميلي بلقائه لأنها كانت تريد أن تدرسه عن كثب؛ فقد بدا لها غريباً أن تتزوج تريزا الطائشة بذلك الدكتور الجامد المتحفّظ الذي لا يعرف إلا القوارير وأنابيب الاختبار وفئران التجارِب.

ومع ذلك فقد أخذت السهرة تنصرم وهي ما تزال تجهل شخصيته ولا تكاد تدرك شيئاً من بواطن نفسه؛ فقد لبث طوال الوقت صامتاً لا يتكلم إلا نادراً، ثم اقتضب الدكتور دونالدسون سهرته؛ ففي تمام العاشرة نهض ليستأذن في الانصراف، وفي أعقابه نهضت إميلي أراندل وقالت إنها متعبة وتريد أن تأوي إلى فراشها، ثم صعدت إلى غرفة نومها فانفرط عقد أقاربها وانسحبوا جميعاً إلى غُرفهم. أما الآنسة لاوسون فبقيت في الطابق الأرضي تؤدّي واجباتها المنزلية، فأطفأت نيران المدفأة وتركت بوب يغادر البيت ليقوم بنزهته الليلية، وبعد خمس دقائق صعدت إلى غرفة مخدومتها وقالت لها بحماسة: لقد فعلت كل ما هو مطلوب منّي، وقد جئتك بكتاب تتسلّين بقراءته إذا جافاك النوم.

ثم أخذت ترتّب الغطاء على السرير وتُعِدّ قربة الماء الساخن لتدفئة قدمَي مخدومتها وهي تردّد قائلة: لم أجد في المكتبة الكتب التي طلبتِها، ولكنني أعتقد أن هذا الكتاب سيروق لك.

فردّت إميلي أراندل قائلة بجفاء: إن تلك البائعة جاهلة حمقاء لا تعرف ما لديها من الكتب. ثم سألتها قائلة: أرجو أن تكوني قد استمتعت بأجازتك مساء اليوم؟

فأشرق وجه الآنسة لاوسون وأجابت بانفعال قائلة: نعم، شكراً لك. لقد استمتعت بها استمتاعاً طيباً. لقد أمضينا السهرة في استحضار الأرواح، وقد تلقّينا منها رسالات طريفة. إن جوليا تريب وسيطة بارعة شفافة النفس! نعم، تلقّينا رسائل عديدة من أولئك الذين سبقونا إلى الموت، والحق أنني مدهوشة لهذه الصلة الوثيقة القائمة بيننا وبين عالَم الأرواح!

فلاحت ابتسامة خفيفة على شفتَي الآنسة أراندل وقالت: إياك أن يسمعك الواعظ وإلا لامك على إيمانك بهذه السخافات.

فأجابت وصيفتها بحماسة وانفعال قائلة: ولكنني مؤمنة إيماناً عظيماً باستحضار الأرواح يا آنسة أراندل، إنها حقيقة واقعة لا شكّ فيها ولا يمكن أن تكون خدعة أو تمويهاً، وكم أتمنّى لو أن السيد لونسديل أولى الأمر عناية وفحصه بإنصاف لأنه من الحماقة أن يحكم المرء على أي شيء مسبقاً دون أن يستوثق من حقيقته. نعم، إن جوليا تريب وإيزابيل تريب وسيطتان قديرتان.

فقالت الآنسة أراندل ضاحكة بمرح: أولى بهما أن تتركا هذه الدنيا وأن تنتقلا إلى العالَم الآخَر لتعيشا في عالَم الأرواح!

فقد كانت إميلي أراندل لا تحفل بهاتين الوسيطتين وتزدريهما وتسخر من حياتهما النباتية. نعم، إن جوليا وإيزابيل امرأتان تافهتان في رأيها، وضيعتا المنبت لم تتلقّيا إلا قسطاً ضئيلاً من التعليم، وإن كانتا طيبتي السيرة لا تعرفان اللؤم والخبث ولهما طوية سليمة، ولعل تلك الطوية السليمة هي التي جعلت ميني لاوسون المسكينة تهيم بالمرأتين حباً.

ثم أخذت ميني لاوسون تدور بأرجاء الحجرة ترتّب هذا وتنسّق ذاك وقد تضرّج وجهها انفعالاً، وأخيراً قالت بكلمات

متلعثمة مترجرجة: وددت لو أنك كنت تلك معنا الليلة يا آنسة أراندل! لقد خاطبتنا الأرواح وتلقّينا منها العديد من الرسائل، رسائل مدهشة! تصوري، لقد كتبت الأرواح هذين الحرفين بوضوح تام، حرفا «أ. أ.»، وقد رأته إيزابيل أمامها واضحاً جلياً. نعم، إن الأرواح تتجسّد أمام إيزابيل. لا بدّ أن يكون ذلك هو العزيز الغالي الجنرال أراندل، إنها رسالة رائعة مملوءة بالحب والحنان.

فقالت الآنسة أراندل: هذا شيء عجيب! لقد كان أبي صارماً لا يعرف الحب والحنان طوال حياته؛ لقد كان دائماً جاف الطباع!

فهتفت ميني بإيمان واقتناع قائلة: ولكن أحبابنا يتغيّرون في العالم الآخر؛ فهناك لا يعرفون إلا العطف والحب والرقّة والحنان. وبعد ذلك كتبت الأرواح كلمة أخرى واضحة مقروءة بسهولة، وهي كلمة «مفتاح»، وأعتقد أن الروح تقصد مفتاح الخزانة الفكتورية، فهل تعتقدين أن ذلك هو ما قصدته الروح حقاً؟

فقالت الآنسة أراندل بصوت حاد النبرات يوحي بما أثارته تلك الكلمة في نفسها من اهتمام: مفتاح الخزانة الفكتورية؟!

- نعم يا آنسة أراندل، هذا هو ما خطر لي فعلاً، ومَن يدري! لعل في هذا الخزانة أوراقاً خطيرة ذات شأن، لقد جرت من قبلُ أشياء من هذا القبيل. ألا تتذكّرين أنه حدث أن عثر بعضهم على وصية مخبأة في قطعة قديمة من الأثاث؟

فقالت الآنسة أراندل بشيء من الحنق: ولكننا فتّشنا الخزانة الفكتورية بدقّة فلم نعثر فيها على شيء من الوصايا. هيا اذهبي إلى فراشك يا ميني، وفي يوم من الأيام سوف ندعو الأختين تريب إلى قضاء السهرة هنا.

- آه! حقاً؟ كم يسعدني أن نفعل هذا! طاب مساؤك يا آنسة أراندل. أتراك في حاجة إلى شيء آخَر؟ أرجو أن لا يكون وجود هذا الجمع من الضيوف قد أزعجك، وغداً سأعهد إلى إيلين بأن تقوم بتهوية الغرف بعد رحيلهم وأن تنظف الستائر جيداً؛ فرائحة لفافات التبغ تعلق بالستائر وتُفسد جو الغرف! ألا ليتهم يدخّنون في قاعة الاستقبال دون سواها.

فقالت إميلي أراندل ضاحكة بمرح: يجب أن نضحّي قليلاً وننصاع للاتجاهات العصرية يا لاوسون! طاب مساؤك يا لاوسون.

* * *

وعندما غادرت لاوسون الغرفة راحت إميلي أراندل تسائل نفسها عمّا إذا كان استحضار الأرواح خدعة متقنة أم حقيقة واقعة. قد يكون الأمر شاذاً، ولكن لاوسون تبدو مقتنعة مؤمنة. ثم ذكرت الخزانة الفكتورية والنعاس يغالب عينيها. لقد بحثوا عن مفتاحها بعد موت أبيها فلم يهتدوا إليه فاضطُروا إلى أن يكسروا القفل، ولكن ما الذي عثروا عليه داخل الخزانة؟ مجرّد مجموعة من زجاجات الخمر الفارغة وأشياء تافهة.

ولكن أنى للآنسة لاوسون والأختين تريب أن يعرفن أن مفتاح تلك الخزانة كان قد اختفى وأن أحداً لم يعثر عليه حتى اليوم؟ إن الآنسة لاوسون لم تكن في خدمتها في تلك الأيام ومن المستحيل أن تعرف شيئاً عن المفتاح الضائع. إذن فلا بدّ أن استحضار الأرواح مسألة حقيقية وأن تلك الأرواح يمكن أن تعرف شيئاً.

وحاولت أن تغفو ولكن النوم جفاها وأبى أن يستجيب، فلعنت طبيبها الأحمق ذلك الدكتور غرينغر الذي لا يفتأ ينصحها

بأن تتناول أقراصاً منوّمة إذا استبدّ بها الأرق. إن الحبوب المنوّمة من الأشياء التي انهارت أعصاب كثير من الناس بسببها، أما هي فما تزال امرأة شديدة قوية البنية وأعصابها قوية.

وكان من عادتها إذا أبت عيناها أن تغمضا أن تترك فراشها في جوف الليل وتنزل إلى الطابق الأسفل فتنسّق الكتب في المكتبة أو ترتّب الزهور أو تحرّر خطاباً أو خطابين، المهم أنه كان من عادتها أن تشغل نفسها بأي شيء حتى يدبّ النعاس إلى عينيها فترتدّ راجعة إلى فراشها، فذلك أجدى ألف مرّة من تناول الحبوب المنوّمة.

ومع ذلك فقد كانت لا ترتاح إلى تلك الجولات الليلية لأنه كان يُخيل إليها أن ذلك البيت الفسيح مليء بالأشباح، وأنها حيث تسير تتناهى إلى سمعها أصوات صادرة من الحديقة شبيهة بعويل الموتى... إنها أشباح أخواتها إيزابيلا وماتيلدا وأنييس وأخيها توماس دون شكّ! إنها تتخيل شبح توماس ماثلاً أمام عينيها كما كان قبل أن تستحوذ عليه تلك المرأة وتوقعه في براثنها، بل إنها تستطيع أن تلمح شبح الجنرال جون لافيرتون أراندل، ذلك الطاغية الجبار الذي كان لا يفتأ يزمجر ويعنّف بناته بقسوة وبلا رحمة ليل نهار، وإن كنّ جميعاً يفخرن به وبتاريخه المجيد في الهند.

ثم ارتدّت خواطرها إلى خطيب ابنة أخيها فقالت في نفسها: إنه شاب جيد لا يقرب الخمر في حين أن خطيبته لا تكاد ترفع الكأس عن شفتيها، فكيف قام الحب بينهما وكل منهما على نقيض الآخَر طباعاً وسلوكاً؟! أما شارل فهو كأخته يمكن أن يحتسي زجاجة كاملة خلال ساعة واحدة بكل سهولة. إن شارل شاب ظريف حلو الحديث طيب المعشر، ولكنه شخص لا يمكن الركون إليه أو الاعتماد عليه بكل أسف.

ثم استندت إلى مرفقيها في الفراش وحاولت أن تطرد من ذهنها تلك الخواطر المشتّتة التي تتدفّق على رأسها، ولكن جهودها ذهبت عبثاً ودون جدوى؛ فما زال النوم يجافيها. ها هي الساعة تدقّ الواحدة بعد منتصف الليل ومع ذلك فما زال النوم بعيداً عن عينيها، فتركت الفراش وانتعلت خفّيها وألقت برداء النوم على كتفيها وقرّرت أن تهبط إلى الطابق السفلي لتشغل نفسها بأي شيء، كأن تنسّق الزهور أو ترتب الكتب كما كانت عادتها كل ليلة.

خرجت من الغرفة على مهل ووقفت على الدرَجة العليا من الدرج، وكان الضوء صادراً من المصباح الصغير فمدّت يدها فاستندت على سياج الدرَج وأخذت تخطوها هابطة إلى أسفل، وفجأة تعثّرت بشيء ما وعجزت عن أن تحفظ توازنها فوقعت على الدرَج وأخذت تتدحرج على الدرجات إلى أسفل، ثم دوّت سقطتها في جوف الليل الساكن وتردّدت صرختها في أرجاء البيت فأيقظت النيام من رُقادهم.

فُتحت الأبواب وأُضيئت الأنوار وبرز أهل البيت من غُرَفهم وهُرعوا إلى رأس الدرَج ليتبيّنوا ما حدث، وكانت الآنسة لاوسون أول من غادر غرفته، ثم أطلقت صرخة ارتياع وهُرعت هابطة الدرَج، وعلى الأثر تجمع الآخرون عند رأس الدرَج.

كان شارل يتثاءب بكسل وهو يرتدي رداء النوم المنزلي، أما تريزا فكانت في رداء النوم الأخضر، وبدت بيلا في رداء نوم أزرق اللون وشعرها معقوص إلى الخلف. كانت إميلي أراندل مكوّمة في أسفل الدرَج زائغة البصر مدهوشة الذهن توشك أن تفقد وعيها. لقد أُصيب كتفها وكاحلها وكان جسمها كله ينبض بالألم، فأخذت تتأوّه وترسل أنّات خافتة متوجّعة، ولكنها كانت واعية لما حولها،

واعية للقوم الملتفّين حولها المحنيين فوقها، فهذه هي الحمقاء لاوسون تصرخ وتبكي وتلوّح بيديها بحركات هستيرية لا معنى لها، وهذه هي تريزا تنظر إليها بعينين فزعتين، أما بيلا فكانت واقفة على قيد خطوات وقد فغرت فمها كالبلهاء، أما شارل فلم ترَه بجانبها ولكنها سمعت صوته آتياً من بعيد قائلاً: إنها كرة ذلك الكلب الملعون! لا بدّ أنها داست فوق كرة بوب فاختلّ توازنها، لا بدّ أنه تركها هنا فوق رأس الدرَج. آه، ها هي الكرة!

وكانت واعية لصوت آمر واثق من نفسه يأمر مَن حولها بالابتعاد، كما كانت واعية ليدين حانيتين تجسّان كل موضع من بدنها وتضغطان كل عظمة في جسمها، ثم سمعت صوته، صوت الدكتور تانوا وهو يقول: اطمئنّوا، إنها بخير لم تُصَب بأي كسر. إن العظام سليمة، كل ما هنالك مجرّد خدوش ورضوض. طبعاً إن الصدمة النفسية شديدة ولكنها لحسن الحظّ لم تُصب بأي كسر.

كما كانت واعية لما حدث بعد ذلك، فقد انحنى الدكتور تانوا فوقها وحملها على كتفيه بسهولة دون مشقّة كما يحمل الإنسان طفلاً صغيراً وارتقى بها الدرَج إلى غرفة نومها، ثم أرقدها على فراشها وأمسك برسغها ليجسّ نبضها، ثم أومأ برأسه بارتياح وبعث بميني لاوسون التي كانت لا تزال تبكي لتأتيه بكأس من عصير الليمون وقربة من الماء الساخن.

وكانت إميلي لا تزال مصدومة متوجّعة، ولكنها أحسّت بالامتنان نحو الدكتور جيكوب تانوا وخامرها الارتياح لوثوقها بأنها بين أيد أمينة حاذقة تعرف واجبها. لقد بعث تانوا في نفسها شعوراً بالاطمئنان، ومع ذلك فقد كان يوجد شيء غامض يدور في أعماق نفسها، شيء خفيّ لا تدري كنهه وحقيقته، شيء يملأ

طوايا نفسها، ولكنها كانت عاجزة عن أن تحدّد ذلك الشيء أو أن تتبيّن حقيقته في تلك اللحظة.

كان عليها أن تجرع كأس الليمون وأن تخلد إلى النوم كما أمرها الدكتور تانوا، فأطبقت عينيها وهي تسمع الدكتور تانوا يقول: إنها بخير، سوف تُشفى وتصحو على أحسن حال.

* * *

أفاقت إميلي أراندل على صوت تعرفه، صوت رقيق حنون خافت، إنه نباح كلبها الحبيب بوب. ففتحت عينيها في لحظة خاطفة. لقد كان بوب ينبح في الحديقة خارج البيت، إذن فقد أمضى الشقي ليلته خارج البيت! ثم أرهفت الآنسة أراندل أذنيها فتناهت إليها خطوات ميني وهي تُهرع إلى الكلب، ثم سمعت صرير الباب وهو يُفتَح وصريره وهو يُغلق، كما سمعت همهمة ميني بصوت خافت وهي تلوم الكلب وتؤنّبه قائلة: أهذا أنت أيها الشقي الصغير!

وفي تلك اللحظة أدركت إميلي أراندل حقيقة ذلك الشيء الغامض الخفيّ الذي كان يدور في طوايا نفسها عندما سقطت على الدرَج وتكوّمت عند أسفله وهُرع إليها الجميع والتفوا حولها فيما عدا بوب، فلو أنه كان موجوداً داخل البيت لكان هو أول مَن هُرع إليها، ولا سيما أن بيته عند أسفل الدرَج. نعم، كان هذا هو ما فكّرت فيه إميلي عقب وقوع الحادث، كان هذا هو ما يشغل عقلها الباطن. ولكن لا، لم يكن هذا وحده هو ما كان يشغلها، بل كان يوجد شيء آخَر يتعلّق بالحادث نفسه، فما ذلك الشيء يا تُرى؟

وفي تلك اللحظة بدأت الأمور تنجلي وأخذ ذهنها يصفو، فحينما كانت مكوّمة أسفل الدرَج جاءها صوت شارل وهو واقف

عند رأس الدرج يقول إن عمّته تعثّرت بكرة بوب فاختلّ توازنها، ثم سمعته وهو يقول: آه، ها هي ذي الكرة! إذ يبدو أنه التقطها من على الأرض بأعلى الدرج، ولعلها لمحته ممسكاً بالكرة أيضاً.

ثم أحسّت إميلي أراندل برأسها يكاد يتحطّم وأوجاع كتفها وكاحلها تفري جسدها، ولكنها كانت صافية الذهن رغم تلك الأوجاع، فلم يكن رأسها مشوشاً مرتبكاً بل كانت تفكر بهدوء تفكيراً منطقياً واضحاً. واسترجعت إلى ذهنها جميع الوقائع التي مرّت بها منذ الساعة السادسة مساء، ففي تلك الساعة كانت واقفة على باب البيت تلاعب كلبها وتقذف بالكرة إلى الحديقة فيلتقطها بوب ليعود بها إليها، ثم أخذت الكرة وأغلقت الباب ودخل بوب وراءها، وبعد ذلك ذهبت إلى غرفة الاستقبال فأودعت الكرة دُرج المكتب، ثم صعدت إلى غرفتها لتستجم قليلاً، وبعد ذلك هبطت لتناول العشاء، ثم أوت إلى فراشها مرّة أخرى فجفاها النوم فأرادت أن تهبط إلى الطابق السفلي في منتصف الليل لتشغل نفسها بأي شيء لعل النوم يوافيها، ثم ها هي ذي واقفة على الدرَجة العليا عند رأس الدرَج، وها هي ذي تخطو إلى الأمام لتهبط الدرَج.

ودب الفزع في قلبها واحتوتها موجةٌ من الرعب. لا، لا بدّ أنها مخطئة، لا بد أنها تتوهّم أشياء لا وجود لها، ولكن لا، إنها واثقة ممّا حدث؛ إنها لم تَدُس على كرة بوب لأن أي كرة لم تكن هناك على الإطلاق؛ فهي لم تشعر بشيء متكوّر مستدير تحت قدمها ولكنها تعثرت بشيء آخر. ولكنها طردت تلك الفكرة من رأسها؛ فقد كانت فكرة رهيبة مخيفة، وتمنّت لو أنها كانت واهمة.

* * *

الفصل الرابع

كان ذلك في يوم الجمعة، وقد رحل الأقارب جميعاً وعادوا إلى بيوتهم. لقد عرضوا جميعاً دون استثناء أن يبقوا إلى جانب الآنسة أراندل حتى يتم شفاؤها، ولكنها رفضت عرضهم وشكرتهم، ثم قالت بوضوح وإصرار إنها تفضّل أن تظلّ وحدها لأنها بحاجة إلى الهدوء. وهكذا رحلوا جميعاً يوم الأربعاء كما كان مقرراً من قبل.

وخلال اليومين اللذين انقضيا منذ رحيلهم كانت الآنسة أراندل غارقة في خواطرها بشكل شاذ، حتى إنها لم تكن تسمع أو تعي ما تقوله لها الآنسة لاوسون في بعض الأحيان، وكانت تحملق فيها بشرود ثم تسألها أن تُعيد على مسامعها مرّة أخرى ما كانت تقوله، فكانت الآنسة لاوسون لا تفتأ تردّد بإشفاق: "هذا من أثر الصدمة دون شكّ". أما الدكتور غرينغر فكان يحاول أن يبعث الاطمئنان في نفسها، فأكّد لها أنها سوف تُشفى خلال أيام قليلة وتعود إلى سابق نشاطها، كما كان يداعبها بقوله بأن من سوء حظه أن عظامها لم تنكسر، وإلا لربح من وراء علاجها الشيء الكثير. ولكن عندما انصرف الطبيب وخلت الآنسة أراندل إلى نفسها أخذت تفكر، وذهبت بها خواطرها بعيداً مستعيدة إلى ذهنها تفصيلات الحادث.

وكانت الآنسة لاوسون تنحني فوق الكلب وتربت على ظهره بحنان وهي تقول: أيها الشقي الصغير، ألا ليتك تعرف أنك كنت السبب في كل هذا! لو أنك عرفت لملأ الحزن قلبك.

فردّت عليها الآنسة أراندل معترضة لائمة قائلة: ما هذا الذي تقولين يا لاوسون؟ أنت تظلمينه بهذا، إن كل متهم بريء حتى يقوم الدليل على إدانته.

- ولكننا جميعاً نعرف أنه ترك الكرة على...

فقاطعتها الآنسة أراندل بحنق قائلة: نحن غير متأكّدين من شيء على الإطلاق، فدعي بوب وشأنه ولا ترميه بالتهم جزافاً. والآن ابعثي إلي بإيلين.

فخرجت الآنسة لاوسون بهدوء وتبعتها الآنسة أراندل بنظرات حانقة غضبى. ولم تكن الآنسة أراندل حانقة على الآنسة لاوسون وحدها بل كانت حانقة على نفسها؛ ففي بعض الأحيان كانت لا تطمئن إلى سلامة تفكيرها وتشكّ في قوة ذاكرتها أحياناً. ثم عادت الآنسة لاوسون إلى الغرفة متسلّلة على أطراف أصابعها، فصاحت بها الآنسة أراندل بغضب قائلة: أنت تزعجينني بهذا المشي على أطراف الأصابع!

وفعلاً كانت الآنسة لاوسون قد أزعجتها وانتزعتها من خواطرها المتدافعة المتضاربة التي تدور في رأسها كالدوامة العنيفة، ثم قالت الآنسة أراندل بصوت خافت: ماري فوكس... نعم، ماري فوكس.

فتساءلت الآنسة لاوسون قائلة: ماذا تقولين؟

– هل أصبحت حمقاء لا تسمعين؟! كنت أقول ماري فوكس. والآن أحضري لي دفتر الهاتف.

ثم انكبّت على الدفتر تبحث عن رقم معيّن، وفجأة رفعت رأسها وقالت دون توقّع: الحق أنك امرأة مخلصة متفانية يا ميني. والآن غادري الغرفة ودعيني وحدي.

وعندما خلت إلى نفسها غادرت الفراش وجلست إلى المنضدة، وحرّرت خطاباً ذيّلته بتوقيعها، ثم أودعته ظرفاً وأغلقته وكتبت عليه اسم محاميها ويليام بيرفيس وعنوانه. ثم تناولت ورقة أخرى وكتبت عليها خطاباً آخَر، ثم أودعته ظرفاً وكتبت عليه اسم شخص معيّن وعنوانه بعد أن استخرجته من دفتر الهاتف، وكان ذلك هو اسم الشرطي السري الشهير هيركيول بوارو.

ثم سمعت نقرات على الباب فأسرعت الآنسة أراندل فوضعت خطاب الشرطي السري تحت المسند الجلدي الموضوع فوق الأريكة؛ فقد كانت تعرف أن ميني امرأة فضولية تحشر أنفها في كل شيء، ثم أسرعت إلى الفراش فاستلقت عليه وردّت على التي تقرع الباب بقولها: ادخلي.

لقد كانت الآنسة أراندل حريصة على أن لا يعرف أحدٌ سرّها الخفي.

* * *

الفصل الخامس

لم أعرف الوقائع التي سردتها من قبل إلا بعد أن أتمّ هيركيول بوارو استجواب العديد من الناس، ولكنني نسّقتها ورتّبتها حتى تكون الأحداث متسلسلة متماسكة، وقد تورّطت أنا وهيركيول بوارو في تلك الأحداث بعد أن تلقّى خطاباً من الآنسة أراندل، وأنا أذكر ذلك اليوم بتفصيلاته.

كان بوارو جالساً إلى مكتبه يفضّ كومة الرسائل الواردة إليه في ذلك اليوم وهو يحتسي كوباً من الشكلاتة المثلّجة لأن الجو كان قائظاً شديد الحرارة. ومن بين الرسائل الواردة إليه كان يوجد خطاب من الآنسة أراندل، ورأيته يقرأ الخطاب مرّتين بتمهّل وإمعان ويقلب الظرف بين يديه ليفحصه بعناية، فقلت: بوارو، إن هذا الخطاب الذي بين يديك له أهمية خاصة.

فابتسم بوارو ونظر إليّ برهة ثم قال ساخراً: أصبت. يبدو أنك شيرلوك هولمز العصر الحديث!

ثم دفع إليّ بالخطاب وهو يقول: خذ الخطاب فاقرأه.

فقلت معترضاً: وما الذي يدعوني إلى قراءته؟ حسبي أن تُفضي إليّ أنت بالمعضلة التي تضمّنها الخطاب.

- ولكن الخطاب خال من أية معضلة.

فأخذت الخطاب ومضيت أتلوه، وكان هذا نصّه:

عزيز السيد هيركيول بوارو،

بعد الكثير من التردّد والإحجام رأيت أن أبعث إليك بهذا الخطاب راجية أن تمدّ يد العون إليّ في مسألة على أقصى درجات السرية، أنا لا أجهل شهرتك العريضة؛ فقد حدّثتني عنك صديقتي الآنسة فوكس من مدينة إكستر وأطنبت في امتداحك، وإن كانت الآنسة فوكس نفسها لا تعرفك شخصياً ولم تتّصل بك من قبل بل سمعت عنك من زوجة أخيها التي لا أستطيع أن أتذكّر اسمها بكل أسف.

أنا في دوّامة مزعجة، وقد خطر لي أنك يمكن أن تقوم ببعض التحرّيات لحسابي، ولكن الأمر يجب أن يُحاط بالسرية التامة كما سبق أن أشرت؛ فقد يكون الأمر كله مجرّد وهم كاذب لا أساس له؛ فالمرء يفسر أمراً من الأمور بطريقة تتسم بسوء الظن في بعض الأحيان.

أنا أشعر بقلق شديد إزاء الأحداث التي مرّت بي، ولعلك تدرك بجلاء أنني لا أستطيع أن أُفضي بما في نفسي إلى أحد في ماركيت بيسنغ لأنه قد يُشاع الأمر ويُذاع ثم يتبيّن أنه مجرّد هواجس كاذبة. ولا أكتمك أنني خلال الأيام القليلة الماضية لمت نفسي كثيراً على هذه الوساوس التي تدور في ذهني وخشيت أن أكون مبالغة في أوهامي وهواجسي، ولكنني لا ألبث أن أعود فأقول في نفسي إنني محقّة في كل ما يخطر ببالي وإنني على

صواب فيما دار بخلدي.

وأحب أن أذكر لك أنه لا أحد هنا يعرف شيئاً عمّا أفكر فيه، فقد كتمت الأمر عن الناس جميعاً لأنني لا أستطيع أن أحدّثهم عن شيء تافه مثل كرة الكلب، ولكنني ما زلت أعلّق أهمية كبرى على ما حدث رغم تفاهة الموضوع. تُرى هل أنا على حق فيما يدور بذهني أم أنني امرأة عجوز مخرّفة غلبت الوساوس على تفكيرها؟ أتراني مخرّفة أعلّق الكثير على حادثة الكلب في الليلة الماضية؟

أرجو أن تخبرني بالأجر الذي سوف تقدّره لنفسك عن القيام بالتحرّيات التي أريدها، أنا في انتظار رأيك ومشورتك.

إميلي أراندل.

فقلبت الخطاب في يدي وتساءلت قائلاً: الخطاب غامض والمعضلة غير مفهومة.

- لا شيء فيه إلا الإشارة إلى كرة الكلب.

- ولكنها إشارة لا تعني شيئاً على الإطلاق!

وصمتّ بُرهة ثم استطردت قائلاً: لو أنني مكانك لألقيت بالخطاب في سلة المهملات يا بوارو.

فضحك بوارو وقال: هذا ما أتوقّعه منك لأن خلايا مخّك لا تزال غير ناضجة يا هيستنغز.

فقلت متسائلاً: أتعني أنك فهمت من الخطاب شيئاً لم أفهمه

أنا؟ إنه خطاب لا يثير الاهتمام دون شكّ.

- ومع ذلك فإن فيه نقطة أثارت اهتمامي منذ الوهلة الأولى.

فهتفت قائلاً: لحظة واحدة، دعني أفكر في الأمر فقد أهتدي إلى تلك النقطة.

وأخذت أقلّب عينَي في الخطاب مرّة أخرى، ثم هززت رأسي بأسف وأنا أقول: لا شيء! لا شيء فيه يلفت النظر على الإطلاق، إنها امرأة معتوهة مولعة بالثرثرة ورأسها مكتظّ بالهواجس.

فقال بوارو: لا زلت أؤكّد لك أن في الخطاب شيئاً هاماً فاتك أن تفطن إليه يا هيستنغز.

- أتعني قولها «كرة الكلب» أو عبارتها الأخرى عن «حادثة الكلب في الليلة الماضية»؟

فأجاب بوارو قائلاً: لا هذا ولا ذاك.

- لقد حيرتني، فحدثني بما يدور في نفسك يا صديقي.

- أنا أعني التاريخ، تاريخ الخطاب.

- عجباً، وأي شيء في التاريخ قد أثار اهتمامك؟

ثم أخذت الخطاب مرّة أخرى فتصفّحته، وكان مؤرّخاً في يوم السابع عشر من شهر نيسان (أبريل).

فقال بوارو: تماماً، واليوم هو الثامن والعشرون من حَزيران (يونيو).

فقلت: هذا صحيح، أي أنه انقضى ما يربو على شهرين منذ

كتابة الخطاب حتى تسلّمتَه.

- أفلا ترى الأمر غريباً؟!

فهززت رأسي بشكّ وارتياب وقلت: لا أدري! ربما كان الأمر مجرّد خطأ، لعلها أرادت أن تؤرّخه في شهر حَزيران فأخطأت وكتبت شهر نيسان بدلاً من الشهر المقصود.

- حتى هذا معناه أن رحلة الخطاب إلينا استغرقت أحد عشر يوماً، وليس هذا بالأمر المألوف.

ثم أردف قائلاً بإيمان ويقين: لا يا صديقي، لقد كتب الخطاب فعلاً يوم السابع عشر من نيسان (أبريل)، ولكنه لم يُودَع في البريد إلا بعد انقضاء ما يربو على شهرين، فلماذا؟ وما السبب؟ ما السرّ في هذه المهلة؟

- لِمَ لا تكون تلك العجوز الخرقاء قد غيّرت رأيها فعدلت عن إرسال الخطاب، ثم عادت فقرّرت أن تبعث به إليك؟

- إذن لماذا لم تغيّر التاريخ؟

- مجرّد إهمال منها.

- لا، لا بدّ أن الأمر ينطوي على سرّ يا عزيزي هيستنغز.

ثم تناول بوارو ورقة وجلس إلى مكتبه ومضى يحرّر رداً على الخطاب، وانقضت بضع دقائق والسكون يسود الغرفة فيما عدا صرير القلم على الورق، وأخيراً اعتدل في مقعده وتناول الردّ الذي كتبه فمزّقه وقذف به إلى سلة المهملات، فسألته قائلاً: هل قرّرت أن تغفل الردّ على الخطاب؟

فأجابني قائلاً: يمكنك أن تقول ذلك يا صديقي.

- إذن فأنت توافقني الرأي في أن خطابها تافه لا يستحق الاهتمام؟

- لا، أنا لم أوفقك على رأيك يا عزيزي، وإذا كنت قد أغفلت الردّ على خطاب الآنسة أراندل فلأن رأيي قد استقرّ على خطة أخرى.

- حقاً؟ وما هذه الخطة الأخرى؟

- سنسافر اليوم إلى ماركيت بيسنغ لنستفسر عن حقيقة ما حدث.

فهتفت قائلاً: يا إلهي! هل تنوي أن تسافر حقاً؟

- وفي الحال يا عزيزي.

* * *

الفصل السادس

استغرقت رحلتنا إلى ماركيت بيسنغ قرابة ساعة ونصف الساعة، فبلغناها وقد اقترب الوقت من الظهر. وفي وسط القرية كان يوجد ميدان كبير خُصّصت فيه ساحة في أحد الأركان لانتظار السيارات فأوقفتُ فيها سيارتنا الأوستن، ثم تقدّم بوارو من أحد المارة فسأله قائلاً: أنا غريب عن هذه المنطقة، فهل لك أن ترشدني إلى فيلاّ ليتل غرين؟

فأجابه الرجل قائلاً: لا يمكن أن تضلّ عنها؛ سِر في الشارع الرئيسي، وبعد المصرف مباشرة ستجد الفيلاّ المنشودة أول بيت كبير إلى يسارك.

وقد اهتدينا إلى الفيلاّ دون عناء. وحين اقتربنا منها كانت توجد مفاجأة في انتظارنا؛ لقد تناهى إلى أسماعنا نباح كلب ينبعث من وراء أسوار الفيلاّ، وكانت الشجيرات القائمة وراء السور قليلة غير متكاثفة فاستطعنا أن نرى الكلب بوضوح. كان كلباً صغيراً، وما إن رآنا حتى أبرز رأسه من خلال القضبان وهو ما زال يرسل نباحه المتواصل، فمددت يدي أربت على رأسه مداعباً وأنا أُلاطفه ببعض الكلمات، فغمغم بوارو قائلاً: أتذكر ما جاء في الخطاب؟ «حادثة كرة الكلب»، وها نحن قد عثرنا على الكلب على الأقل،

وإن كنا لا نزال نفتقد الكرة.

وأخذ الكلب ينبح بهدوء وقد طابت له ملاطفتي. ثم كانت المفاجأة الثانية، وهي أننا رأينا على بباب الفيلاّ لوحة عليها هذه الكلمات: «للإيجار أو البيع، اتصلوا بمكتب السماسرة غابلر واسرنشار».

وكان مكتب غابلر واسرنشار في ميدان القرية فلم نتردّد في الاتجاه إليه، واستقبلتنا فتاة كانت منهمكة في حديث هاتفي، ثم أشارت إلى أحد المقاعد وقد قطبت جبينها فجلسنا واستطردت الفتاة في حديثها الهاتفي، قائلة: لا، أنا لا أعرف قيمة الإيجار. نعم، إنه متّصل بشبكة المجاري، طبعاً سأستفسر منه وأتصل بك. ما هو رقم هاتفك؟ ٨٩٣٥؟ ماذا تقول؟ ٣٩؟ ماذا؟ ٥١٣٥؟ حسناً، لقد دوّنته عندي، شكراً لك.

ثم وضعت السماعة مكانها وكتبت على ورقة رقم الهاتف، ولكنها كتبته ٣٣١٩، ثم التفتت إلى بوارو بعينين مستفسرتين فقال لها: لقد جئت بشأن الفيلاّ المعروضة للبيع، فيلاّ ليتل غرين. أظن أن هذا هو اسمها؟

فقالت الفتاة بشرود وتكاسل: ماذا تقول؟

فعاد يردّد كلماته قائلاً: فيلاّ ليتل غرين المعروضة للبيع.

فقالت الفتاة: ليتل غرين؟ أهي معروضة للبيع؟!

- هذا ما هو مدوّن بالإعلان المعلّق ببابها على الأقل.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: لا شكّ في أن السيد غابلر يعرف هذا ويعرف مزيداً من التفصيلات، فهل يمكن أن أقابله؟

فأجابته بضيق وتبرّم قائلة: إنه غائب عن المكتب الآن.

- أتعرفين متى سيعود؟

- لا أدري، فهو لم يخبرني بموعد عودته.

وكان بوارو صَبوراً طويل البال فاحتمل تبرّمها بصبر، ثم قال: أنا أريد أن أشتري بيتاً في هذه القرية، فما هي معلوماتك عن فيلاّ ليتل غرين؟

فنادت زميلاً لها في المكتب الداخلي قائلة: جون، ألديك معلومات عن ليتل غرين؟

فأجابها صوت شاب من الغرفة المجاورة قائلاً: لا، ابحثي عن الملف في الدُّرج وستجدين فيه كل ما تريدين.

فقامت عن مقعدها بتراخ وكسل وقد ازداد وجهها عبوساً، ففتحت دُرجاً مليئاً بالملفات وهي تردّد وتقول متسائلة: ماذا قلت؟ ما هو اسم الفيلاّ؟

فأجابها بوارو قائلاً: هل نسيتِ بهذه السرعة؟! ليتل غرين.

فرمته بنظرة شزراء ثم أخذت تبحث في الدُّرج وتقلّب ما فيه من ملفات، وأخيراً رفعت رأسها وقالت: آسفة، لم أعثر على الملف، لا بدّ أنه في موضع آخَر.

ثم عادت إلى مقعدها فتهالكت فوقه بإعياء وكأنها عادت لتوّها من سفر طويل، فقال بوارو: هذا شيء يؤسف له، لقد كنت أنوي أن أستأجرها.

- ولكن الفيلاّ ليست معروضة للإيجار.

- هذا عجيب، فالإعلان يقول إنها للبيع أو للإيجار!

وعند تلك النقطة من الحوار (أو المعركة إن شئت أن تسمّيها) فُتح الباب ودخل كهل أنيق الثياب تأمّل الحاضرين بنظرة تدلّ على الذكاء ثم حيا بوارو باحترام، فقالت الفتاة: هذا هو السيد غابلر صاحب المكتب.

فقال السيد غابلر بمودة وترحاب: أنا في خدمتكما أيها السيدان، فما الذي تريدانه؟

قال بوارو: أريد بعض المعلومات عن فيلاّ ليتل غرين.

فقال: آه، ليتل غرين. يا لها من فيلاّ رائعة!

ثم أخذ يصف الفيلاّ بأسلوب المحدّث اللبق الخبير بوسائل الإغراء والإقناع، فسرد تاريخها القديم وتحدّث عن طرازها الفكتوري الأصيل، وعندما فرغ من محاضرته سأله بوارو: وهل ظلّت في أيدي أصحابها الأصليين طويلاً أم تغيّر مُلاكها؟

- بالعكس يا سيدي، لقد ظلّت خلال أكثر من خمسين عاماً ملكاً لأسرة واحدة، أسرة أراندل، وهي أسرة محترمة من الطراز المحافظ.

ثم التفت إلى الفتاة الكسول وقال لها: آنسة جينكز، إليّ بملف ليتل غرين، وأسرعي.

فهُرعت الفتاة إلى نفس الدُّرج الذي بحثت فيه عن الملف من قبل، ولكنها عادت به خلال لحظات في هذه المرّة. ففتح السيد غابلر الملف وأطلع بوارو على الرسم الداخلي لغرف الفيلاّ، ثم ناول الملف فتاة المكتب قائلاً: اكتبي هذه المعلومات في ورقة.

فجلست الآنسة جينكز إلى الآلة الكاتبة وجرت أصابعها على مفاتيحها تدوّن المعلومات المطلوبة، ثم قال له بوارو: هل يمكن أن تعطيني تصريحاً بمشاهدتها؟

- بكل تأكيد يا سيدي، ما اسمك من فضلك؟

وكم دُهشت حين سمعت بوارو يجيب قائلاً: اسمي السيد باروتي.

- ومتى تنوي أن تذهب لزيارة الفيلاّ حتى أُخطر الخدم الذين يقومون بالإشراف عليها يا سيدي؟

- بعد ظهر اليوم، في الساعة الثانية.

- حسناً، هذا موعد ملائم.

ثم سأله بوارو قائلاً: إن صاحبة الفيلاّ تُدعى الآنسة أراندل، أليس كذلك؟

- إنه الآن ملك للآنسة لاوسون، هذا هو اسم المالكة الحالية؛ فقد ماتت الآنسة إميلي أراندل منذ أسابيع قليلة وأوصت بالفيلاّ إلى وصيفتها الآنسة لاوسون التي قرّرت أن تبيعها.

فسأله بوارو قائلاً: وما الذي دعاها إلى اتّخاذ هذا القرار؟

- إن البيت كبير عليها، فرأت أن تبيعه وتنتقل إلى لندن للإقامة فيها، وهذا يُتيح لك فرصة الحصول عليها بثمن بخس. إنها فرصة لا تُقدّر بثمن ولا يصح أن تفلت منك يا سيدي.

فعاد بوارو يتساءل قائلاً: هل ماتت الآنسة أراندل فجأة؟

- لا، لقد كانت عجوزاً جاوزت السبعين ببضع سنوات،

وقد أمضت الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياتها تعاني الأمراض، وهي آخِر أفراد أسرتها فقد ماتت أخواتها الثلاث قبلها.

وصمت السيد غابلر بُرهة ثم استطرد قائلاً: أنا واثق أن البيت سيروق لك يا سيد باروتي، وآمل في أن نلتقي مرّة أخرى.

* * *

الفصل السابع

عندما غادرنا مكتب السمسار غابلر وشركاه قلت لبوارو: ذلك السمسار غابلر وسيط قدير! لقد وقع في روعه أنه استطاع أن يقنعك بشراء الفيلاّ فعلاً.

- مسكين! سوف يُصاب بصدمة عنيفة حين لا يرى وجوهنا مرّة أخرى.

ثم قلت وشفتاي تتلمّظان جوعاً: يحسُن بنا أن نبادر إلى تناول الغداء، إلا إذا كنت تنوي أن نتناول الغداء في لندن.

فضحك بوارو قائلاً: وما أدراك أنني أنوي أن أعود إلى لندن اليوم؟

- يا إلهي! لقد ماتت الآنسة أراندل منذ أسابيع وطُويت صفحتها، فما حاجتك إلى البقاء هنا بعد ذلك؟

فلاحت على شفتَي بوارو ابتسامة غامضة وقال: إن موتها هو الذي يحملني على البقاء.

- ولكن ما الجدوى من بقائك وقد ماتت المرأة وأصبح مستحيلاً أن تجلو اللغز الغامض أو تمدك بشيء من المعلومات؟!

– وهل من الضروري أن تكون هي نفسها مصدر معلوماتي؟ هيركيول بوارو يستطيع أن يحصل على ما يريد من معلومات من مصادر مختلفة يا عزيزي هيستنغز.

فعُدت أقول بإصرار وعناد: ولكن ما دامت المرأة قد ماتت...

فقاطعني قائلاً: أنا أراك شديد التشبّث بواقعة موتها يا عزيزي هيستنغز، فهلاّ خطر لك أن موتها هذا هو الذي يثير اهتمامي؟

– ولكن موتها لم يكن فجائياً! لقد ماتت ميتة طبيعية متوقّعة. ألم يؤكّد غابلر ذلك لنا؟

– وهل نسيت أنه ذكر لنا أن فيلاّ ليتل غرين معروضة بثلاثة آلاف جنيه فقط؟ ألا يثير هذا الثمن التافه شُبهاتك؟

– لعل صاحبتها تهاونت في الثمن الذي تطلبه لأن الفيلاّ تحتاج إلى نفقات جسيمة لإصلاحها.

فقال بوارو متشبّثاً بنظريته المتشكّكة: أو لعل تخفيض الثمن راجع إلى سرّ خفي، لذا على هيركيول بوارو أن يكشف ذلك السرّ ويجلوه.

ذهبنا إلى أحد المطاعم فتناولنا غداء خفيفاً، ثم حمل إلينا النادل قدحين مملوءين بسائل أسود لا مذاق له قال إنه قهوة، وأخذ هيركيول بوارو يتجاذب أطراف الحديث مع النادل، وأشار في حديثه إلى فيلاّ ليتل غرين فذكر أنه يفكّر في مشاهدتها وشرائها إن راقت له، فقال النادل: هذا بيت رائع مشيد على الطراز الفكتوري القديم!

فسأله بوارو قائلاً: هل يحتاج إلى إصلاحات كثيرة؟

- لا؛ فقد كانت الآنسة أراندل تبذل جهدها في صيانته، كما أنها كانت شديدة العناية بحديقته.

فقال بوارو بلهجة تنمّ عن الاستغراب: الآنسة أراندل؟! ولكنني فهمت أنه ملك لمن تُدعى الآنسة لاوسون.

- أنت على حق يا سيدي؛ فقد كانت الآنسة لاوسون هي وصيفة الآنسة أراندل، وعند فضّ وصيّتها بعد وفاتها تبيّن أنها تركت كل ثروتها لوصيفتها.

- هذا أمر غريب! ألم يكن لها أقارب تورّثهم تركتها؟

فقال النادل: ليس الأمر كذلك يا سيدي، فإن لها ابن أخ وبنت أخ وبنت أخت أيضاً.

- وهل كانت تلك الفيلاّ هي كل ثروتها؟

- لا يا سيدي، فقد قيل إنها تركت في المصرف مبلغاً نقدياً لا يقلّ عن ثلث مليون جنيه. لقد كانت الآنسة أراندل ثرية ذات دخل ضخم ولم تكن تنفق إلا القليل.

فهتف بوارو قائلاً: ما تسرده عليّ شبيه بالقصص الخرافية! سندريلا الحديثة، فجأة وجدت الآنسة لاوسون نفسها صاحبة ثروة ضخمة. هل هي في ريعان الشباب؟

- لا يا سيدي، إنها امرأة عجوز مشرفة على الشيخوخة.

فقال بوارو وهو يهزّ رأسه بأسى: لا شكّ في أن تلك الوصية كانت صدمة شديدة الوقع على أقاربها.

- بالطبع يا سيدي، كما كانت صدمة لأهل ماركيت بيسنغ جميعاً، وقد نقموا على الآنسة أراندل أن تتخلى عن أهلها فتترك ثروتها لامرأة غريبة لا تمتّ إليها بوشائج القربى، وإن كانت توجد فئة قليلة من الناس تُقرّها على ما فعلت لأن المال مالها وهي حرّة في أن تمنحه لمن شاءت.

- وهل كانت الآنسة أراندل تقيم هنا منذ أمد طويل؟

- نعم، كانت تعيش هنا هي وأخواتها مع أبيهن الجنرال أراندل. أنا لم أقابله مطلقاً ولكنني أعرف أنه كان من كبار القوّاد في الهند، وبعد وفاته عاشت بناته في البيت، وكانت ماتيلدا أول من وافتها المنية، ثم لحقت بها الآنسة أنييس والآنسة إيزابيلا، وأخيراً توفيت الآنسة إميلي منذ بضعة أسابيع.

- إذن فقد ماتت حديثاً، أليس كذلك؟

- بلى، في شهر... مايو فيما أذكر، بل في شهر أبريل.

- هل كانت مريضة؟

- لا، فهي لم تكن تعاني إلا من أمراض الشيخوخة المألوفة.

- لا شكّ في أن لديكم بعض الأطباء المهرة، فهل كانت تتردّد عليهم؟

فأجابه النادل قائلاً: كان الدكتور غرينغر هو طبيبها الخاص وقد أمضى عشرين عاماً يشرف على علاجها، وله مساعد شاب يُدعى الدكتور دونالدسون، كما يوجد طبيب آخَر في القرية يُدعى الدكتور هاردنغ ولكن حظّه من المرضى محدود.

وعندما هممنا بالانصراف منح بوارو النادل هبة كبيرة، لا مقابل خدماته بل مقابل معلوماته. ثم سألت بوارو ونحن نجتاز الطريق قائلاً: والآن إلى أين تنوي أن تذهب؟

فأجابني قائلاً: إلى المقابر طبعاً.

- المقابر! لماذا؟

- لنزور المقبرة.

فتساءلت ساخراً قائلاً: ألك فيها مَن يمتّون إليك بصلة القربى؟

- لا يا صديقي، وإنما أريد أن أعرف في أي يوم ماتت الآنسة أراندل.

وتجوّلنا في المقابر إلى أن اهتدينا إلى قبرها، فوجدناه قد كتب عليه: «إميلي هارييت لافيرتون أراندل، فاضت روحها في أول أيّار (مايو) من عام ١٩٣٦».

* * *

الفصل الثامن

ما إن غادرنا مقابر القرية حتى اتجهنا إلى فيلا ليتل غرين. ودفع هيركيول بوارو بوابة الحديقة واجتاز الممرّ المرصوف بالحجارة الملونة، وفي تلك المرّة لم يستقبلنا الكلب الصغير وإن تناهى إلينا نباحه صادراً من داخل البيت. ثم ضغطت جرس الباب، فما لبثت أن فتحته لنا امرأة تتراوح سنها بين الخمسين والستين وتلقّتنا قائلة: لقد كنت في انتظاركما؛ فقد أخبرني الوكيل بمقدمكما.

ثم دعتنا إلى الدخول وأخذت تطوف بنا أرجاء البيت وترينا غُرفه المختلفة وهي تردّد قائلة: هذه هي الردهة يا سيدي، أما هذه فهي قاعة الاستقبال، وتلك غرفة المعيشة اليومية... إلخ.

وكانت في قاعة المعيشة لوحات مختلفة على الجدران تمثّل رجلاً وفتيات ما من شكّ في أنهم بعض أفراد الأسرة. وكان نباح الكلب لا يزال يتردّد في آذاننا صادراً من ركن بعيد، ثم اشتدّ النباح علواً وضراوة وكأنه أراد أن يقول: ها أنا ذا أسمع وقع أقدام في البيت، فمَن هؤلاء الغرباء؟ ومَن الذي أذِن لهم باقتحام حرم سيدتي؟

ثم ظهر الكلب فجأة وأخذ يتشمّم المكان ويهزّ ذيله، فقالت المشرفة تخاطبه بمودة: ابتعد أيها الكلب الشقي.

ثم التفتت إليّ حين رأته يدور حول قدمي قائلة: لا تخشَ منه ضراً فهو كلب لطيف لا يؤذي أحداً يا سيدي.

وفعلاً تغيّر سلوك الكلب وخفّ نباحه ورقّ وكأنه يرحّب بنا ويحيّينا، فانحنيت فوقه أربت على ظهره، ثم سألها بوارو وهو يتأمّل الكلب قائلاً: كم عمره؟ هل هو كبير؟

- لا يا سيدي. إن عمر بوب لا يزيد عن ستة أعوام، وهو مرح يحب اللعب، أحياناً يخطف حذاء الطاهية ويخبئه تحت الأريكة ويتركها تبحث عنه لمدّة ساعة كاملة، ولكنه لطيف يحب من الناس أن يداعبوه وأن يداعبهم، والشخص الوحيد الذي يكرهه هو ساعي البريد، فما إن يراه حتى يكشّر عن أنيابه وينبح في وجهه نباحاً مخيفاً.

فقلت متسائلاً: من العجيب أن نلاحظ أن الكلاب على قدر كبير من الذكاء ولها منطق خاص تفسّر به ظواهر الأمور، فهو يرى الزائرين يطرقون الباب كل يوم ويُسمح لهم بالدخول ولكنه يلاحظ أن ساعي البريد هو الوحيد الذي يطرق الباب مرّتين أو ثلاثاً كل يوم، ومع ذلك يراه لا يُدعى إلى الدخول كغيره من الناس، وبمنطقه الخاص يستنتج من هذا أن ساعي البريد زائر غير مرغوب فيه فينبح في وجهه كلما رآه مقبلاً!

فمال بوارو إلى الكلب يداعبه وهو يردّد قائلاً: إنه كلب ذكي لطيف.

فقالت المشرفة: إنه في غاية اللطف والذكاء يا سيدي.

ثم فتحت المرأة باب غرفة أخرى وهي تردّد قائلة: وهذه هي غرفة الاستقبال يا سيدي.

وكانت قاعة فسيحة الأرجاء زُينت جدرانها باللوحات الزيتية والمائية وتوجد في أركانها خزانات عتيقة الطراز صُفّت فيها أوان أثرية من الخزف، وكانت أروع لوحة فيها صورة تمثّل سيدتين عجوزتين جالستين أمام مِغزل من الطراز العتيق تغزلان شالاً من الصوف. واسترعى بصري منظر الكلب الصغير وقد قعد على ذنبه هادئاً ساكناً بجانب المكتب وبصره عالق بالأدراج، فقلت سائلاً المشرفة: ما الذي يريده بوب؟

فأجابت قائلة: إنه يريد كرته يا سيدي، الكرة التي اعتاد أن يلعب بها؛ فهي تودَع في هذا الدُّرج دائماً. ولكنها ليست هنا... إن كرتك في المطبخ يا بوب، كرتك في المطبخ.

ولكن بوب شبّ على قائمتيه وتعلّق ببنطال بوارو وكأنما يريد أن يقول: هذه المرأة حمقاء كاذبة! كرتي ليست في المطبخ بل هي هنا، أنا أعرف أن كرتي توضع في هذا الدُّرج دائماً.

ثم انتقلنا إلى غرفة أخرى فقالت المشرفة: هنا كانت سيدتي تشغل وقتها بتنسيق الزهور؛ فقد كانت مولعة بالأزهار.

فسألها بوارو قائلاً: هل أمضيت في خدمتها زمناً طويلاً؟

- أكثر من عشرين سنة يا سيدي.

- هل كنت وحدك القائمة بخدمتها؟

- بل كانت معي طاهية تقوم بصنع الطعام.

- وهل كانت حديثة العهد بخدمتها؟

- لقد أمضت في خدمتها أربع سنوات فقط؛ فقد التحقت

بالبيت بعد وفاة الطاهية السابقة.

وخلال هذا الحديث سمعنا دقّات منتظمة الإيقاع صادرة من البيت، فقال بوارو متسائلاً: ما هذا الصوت؟ ما سبب هذه الدقّات؟

فأجابت المشرفة قائلة: هذا بوب يلعب بكرته يا سيدي، هذه هي لعبته الأثيرة المفضّلة. إنه يقف على رأس الدرَج ويلقي بها فتتدحرج فوق الدرجات وتُحدث هذه الدقّات المتتابعة حتى تستقرّ أسفل الدرَج، فيعود كي يلتقطها مرّة أخرى.

ثم خرجنا إلى البهو فرأينا الكرة الصغيرة السوداء تتدحرج على الدرجات، فلما استقرّت عند أسفل الدرَج تناولتها وألقيت بها إليه فالتقطها، وعاد يكرّر اللعبة مرّة أخرى، فقالت المشرفة: إنه لا يملّ هذه اللعبة حتى لو أمضى ساعات يمارسها.

ثم صعدنا إلى الطابق العلوي وبدأنا نشاهد غرف النوم، وأخذت المشرفة تتحدّث عن تاريخ تلك الغرف ومَن مِن الأخوات الأربع كانت تشغل هذه الغرفة أو تلك، ثم أردفت قائلة: وقد مات جميع الأخوات تباعاً ولم تبقَ منهن على قيد الحياة إلا الآنسة إميلي، ثم ها هي قد ماتت منذ شهور.

فسألها بوارو قائلاً: هل كان مرضها مزمناً وطويلاً؟

- لا يا سيدي، فقد كانت صحيحة البدن لولا أمراض الشيخوخة المألوفة، ولكنها أُصيبت بالصفراء منذ عامين فبدت المسكينة مصفرّة الوجه إلى درجة تثير الإشفاق، وحينئذ ظن الدكتور غرينغر أنها قد أوشكت على الموت، ولكنها شُفيت بمعجزة واضطُرت إلى أن تعيش فترة طويلة على الخضروات

المسلوقة، ثم عاودها مرض الصفراء مرّة أخرى لأنها لم تكن حذرة في اختيار ألوان الطعام، فقد تناولت حساء بالكاري فاختلّت وظيفة الكبد لأن الكاري مادة دهنية دسمة كما تعلم.

فقال بوارو: وهكذا نزل بها المرض فجأة، أليس كذلك؟

- هذا هو ما كان يبدو يا سيدي، وإن كان الدكتور غرينغر قد أكّد أن المرض بدأ منذ فترة طويلة وأنه كان ينخر في جسمها تدريجياً يوماً بعد يوم، وطبعاً السبب هو الطعام الدسم وتغيّرات الجو الشديدة التفاوت.

فتساءل بوارو قائلاً: ولكن أما كان في وسع وصيفتها لاوسون أن تمنعها من تناول الأطعمة الدسمة؟

- لقد كانت الآنسة أراندل عنيدة صلبة الرأي تأبى أن تتلقى توجيهاً من أي إنسان.

- وهل كانت الآنسة لاوسون في خدمتها في أثناء إصابتها بنوبة مرض الصفراء الأولى؟

- لا يا سيدي، لقد التحقت بخدمتها بعد ذلك.

- مَن كانت وصيفتها في الفترة الأولى إذن؟

- العديد من الوصيفات يا سيدي؛ فقد كانت الآنسة أراندل شديدة الوطأة على مَن يخدمها فكنّ لا يقدرن على البقاء في خدمتها طويلاً، كما أنها كانت ميّالة إلى التغيير والتبديل دائماً.

فقال بوارو: هذا شأن العجائز دائماً، فما إن تقضي الوصيفة في خدمتها فترة من الوقت حتى تملّها وتسعى إلى استبدالها بسواها.

- تماماً يا سيدي، تماماً. لقد أصبت بقولك هذا كبد الحقيقة.

- يبدو أنها كانت شديدة التعلّق بالآنسة لاوسون، أليس كذلك؟

- لا أظن ذلك؛ فقد كانت الآنسة لاوسون امرأة عادية وليست على شيء من البراعة، إنها عجوز حمقاء رأسها مملوء بالخرافات والاعتقاد باستحضار الأرواح.

فبدت أمارات الاهتمام على وجه بوارو وقال: الأرواح؟ هذا أمر عجيب! ماذا تعنين؟

وطاب للمشرفة أن ترى أن حديثها أثار اهتمامنا فقالت: نعم، الأرواح يا سيدي، لا شكّ في أنك تعرف ذلك، فهم يجلسون في الظلام حول مائدة مستديرة ويستحضرون أرواح الأموات ويتحدّثون إليها ويوجّهون إليها شتّى الأسئلة فتجيب عليها.

- إذن كانت الآنسة لاوسون مؤمنة بالأرواح، ولكن ما كان شأن الآنسة أراندل؟ هل كانت مؤمنة بها هي الأخرى؟

- هذا هو ما كانت الآنسة لاوسون تتمنّاه لها.

- ولكن الآنسة أراندل لم تكن تؤمن باستحضار الأرواح، أليس كذلك؟

فأجابت المشرفة قائلة: بلى، إن الآنسة أراندل أعقل وأحكم من أن تؤمن بهذه الخرافات. لقد كانت تجد في ذلك مجرّد تسلية ليس إلا، أما الأخريات فكن يؤمنّ بالأرواح إلى أقصى حد.

فقال بوارو متسائلاً: الأخريات؟! ومَن هؤلاء الأخريات؟

- الآنسة لاوسون والأختان تريب.

فعاد بوارو يكرّر سؤاله السابق قائلاً: ما دامت الآنسة أراندل قد أوصت بكل ثروتها إلى لآنسة لاوسون فلا بدّ أنها كانت شديدة التعلق بها، أليس كذلك؟

- لا أظن ذلك يا سيدي، ولكنها إذا كانت قد أوصت بثروتها للآنسة لاوسون فهذا شأنها وهي حرّة في تصرّفاتها.

وهكذا استطاع بوارو بدهائه ولباقته أن يوجّه ما شاء من الأسئلة دون أن يثير شكوك المشرفة وأن يستدرجها دون أن تشعر إلى الإفضاء بما ينشد من معلومات. وبعد أن فرغنا من مشاهدة غرف النوم مضى بوارو إلى رأس الدرج فتوقف عند الدرجة العليا وأدار عينيه في أرجاء المكان.

وكان الكلب بوب قد اختفى فلم نعُد نراه أو نسمع نباحه، ثم لحقت ببوارو عند رأس الدرَج، ولكنني ما كدت أتقدّم خطوات حتى تعثّرت بشيء ما وكدت أسقط على وجهي، فنظرت لأتبيّن الشيء الذي تعثرت به فإذا هو تلك الكرة الصغيرة السوداء التي اعتاد بوب أن يلعب بها؛ فقد تركها الشقي على رأس الدرَج. فقالت المرأة معتذرة: أنا آسفة يا سيدي! إن ذلك الخبيث يترك كرته في هذا المكان دائماً فلا نراها بسبب الظلام، وسوف يتسبب ذلك في يوم من الأيام في سقوط إنسان ودقّ عنقه. تصوّر أن الآنسة أراندل قبل موتها بأيام تعثّرت بالكرة فتدحرجت فوق الدرَج حتى استقرّت في أسفله.

- هل كان هذا سبب وفاتها؟

- لا، فهي لم تُصَب إلا برضوض وخدوش، وأما عظامها فقد كانت سليمة لم تُكسر لحسن الحظ، وإن كانت قد اضطُرت إلى أن تلزم الفراش أسبوعاً على الأقل.

- هل وقع هذا الحادث منذ زمن بعيد؟

- قبل وفاتها بأسبوع أو أسبوعين.

عندئذ انحنى بوارو على الأرض وهو يقول: أنا آسف، لقد سقط قلمي من يدي. ثم رفع رأسه وهو ممسك بالقلم واستطرد قائلاً: ولكن كيف وقع الحادث؟

- كانت السيدة مصابة بالأرق، ولذلك اعتادت أن تنزل في جوف الليل إلى الطابق السفلي لتشغل نفسها بأي شيء كتنسيق الزهور أو ترتيب المكتب.

- هل كان من عادتها أن تفعل ذلك دائماً؟

- كل ليلة تقريباً. وكان الضوء ضعيفاً فلم ترَ الكرة فداست عليها فاختلّ توازنها فتدحرجت على الدرج إلى أسفله.

ثم هبطنا إلى الطابق الأرضي، وفجأة قال بوارو: تُرى هل تتّسع غرفة النوم لخزانتي الكبيرة يا هيستنغز؟ أظن أنه يحسن بنا أن نأخذ مقاس حجم الغرفة.

ثم صعدنا مرّة أخرى إلى الغرفة، وأخرج بوارو من جيبه شريط القياس المعدني المطوي وأخذ يدوّن المقاسات على ظرف خطاب أخرجه من جيبه، ثم ناولني الظرف قائلاً: سآخذ المقاسات مرّة أخرى يا هيستنغز فراجعها معي.

ولكنني لم أجِد على الظرف أرقام المقاسات بل وجدت هذه العبارة: قُل للمرأة إنك تريد أن تتحدّث بالهاتف لأمر عاجل واصحبها معك، ثم أشغلها بضع دقائق في الطابق الأرضي حتى أفرغ من شأني.

ففعلت ما أمرني، وهبطت إلى الطابق الأرضي تصحبني المشرفة كي ترشدني إلى مكان الهاتف وتركت بوارو وحده كما طلب أن أفعل، وحين فرغت من مكالمتي ورجعنا إليه وجدته واقفاً في البهو عند أسفل الدرَج وعيناه تتألقان انتصاراً وانفعالاً، ثم ابتدر المرأة حين أقبلت عليه بقوله: لا شكّ في أن حادث الكرة كان صدمة شديدة الوقع على سيدتك، فهل عاودت الإشارة إلى حادث الكرة بعد ذلك؟

- نعم يا سيدي، فحين حضرتها الوفاة أخذت تهذي وتردّد في حديثها موضوع الكرة، فكانت تقول: «الكرة... الكلب على الزهرية»، وهي كلمات لا معنى لها، مجرّد هذيان الاحتضار.

- لحظة واحدة، يجب أن أُلقي نظرة أخرى على قاعة الاستقبال.

ثم عدنا إلى الغرفة مرّة أخرى فأخذ بوارو يفحص باهتمام ما فيها من لوحات وتُحف، وخصوصاً زهرية من الخزف موضوعة على إحدى المناضد، إذ أمسك بها وراح يقلّبها بين يديه ويتأمّلها باهتمام وأنا في دهشة من أمره، فقد كانت الزهرية مجرّد إناء عادي خال من الفن الصادق. ثم أخذ يغمغم مردّداً عبارة واحدة قائلاً: في الخارج طوال الليل والمفتاح غير موجود.

ثم التفت إلى المشرفة وقال متسائلاً: هل كان من عادة صاحبنا

بوب أن يبيت خارج البيت؟

- أحياناً يا سيدي. نعم، في بعض الأحيان كان يقضي ليله خارج الفيلاّ ثم يعود في الفجر فيقعد خارج الباب مترقباً أن يُفتح.

- ومَن الذي اعتاد أن يُدخله؟ الآنسة لاوسون؟

- أي شخص يسمع نباحه، وفي آخر مرة، أي ليلة الحادث الذي وقع للسيدة، كانت الآنسة لاوسون هي التي أدخلته؛ فقد سمعت نباحه فهُرعت إليه فأدخلته قبل أن يثير ضجّة توقظ السيدة. وقد كتمت عن السيدة أن بوب قضى ليلته تلك خارج الدار.

فهزّ بوارو رأسه غارقاً في التفكير ثم قال: إذن فقد كانت حريصة على أن لا تعرف السيدة أن بوب أمضى ليلته في الخارج، أليس كذلك؟

- هذا ما أوصتنا به يا سيدي، ولذلك لم نقُل للسيدة شيئاً.

- هل كان بوب مغرماً بالآنسة لاوسون؟

- لا يا سيدي، بل كان يبدو متمرّداً على أوامرها لا يستمع إليها رغم أنها كانت تداعبه وتعطف عليه.

وفجأة فعل بوارو شيئاً لم أكن أتوقّعه منه أدهشني، أبرز من جيبه ذلك الخطاب الذي تلقّاه من الآنسة أراندل صباح اليوم ولوح به أمام عينَي المشرفة وهو يقول: اسمعي يا إيلين، ما الذي تعرفينه عن هذا الخطاب؟

كان التغيّر الذي طرأ على وجه إيلين مذهلاً؛ فقد فغرت فمها وجحظت عيناها وبدا الارتباك جلياً على وجهها، ثم همست

بصوت أجشّ مضطرب قائلة: هذا الخطاب؟ أنا لا أعرف عنه شيئاً يا سيدي.

ثم عادت فتمالكت روعها ورأت أن تعترف بالحقيقة فقالت: هل أنت السيد الذي كان من المفروض أن يُرسَل إليه الخطاب؟

- نعم، أنا هيركيول بوارو.

فغضت المرأة من بصرها وقالت: سوف تُصاب الطاهية بالدهشة والذهول.

فقال لها بوارو بصوت رقيق النبرات: ألا ترين أنه يحسُن بنا أن نمضي إلى المطبخ فأتحدّث معك أنت والطاهية عن هذا الخطاب؟

ثم مضينا نحن الثلاثة إلى المطبخ صامتين، وابتدرت إيلين الطاهية بقولها: آني، تصوّري أن هذا السيد هو صاحب الخطاب... الخطاب الذي عثرت عليه تحت مسند المكتب.

فقال بوارو: توجد أمور ما زالت غامضة عليّ، منها السبب في إرسال هذا الخطاب إليّ بعد أن مضى على تحريره زمن طويل.

فلم ترَ إيلين مناصاً من سرد الحقيقة، فقالت: لقد أخذت الآنسة لاوسون تفرز مقتنيات السيدة أراندل بعد وفاتها وترمي ما لا حاجة بها إليه. وكان مسند المكتب من بينها فأخذته لأستعمله في بيتي فوجدت بين طياته هذا الخطاب المعنون باسمك، فقلت في نفسي: يبدو أن السيدة كانت تنوي أن تبعث به إليك ثم نسيت.

فسألها بوارو قائلاً: هل كان النسيان من طبائع الآنسة أراندل؟

فأجابت قائلة: كانت تودع الشيء مكاناً معيناً أحياناً ثم تنسى أين وضعته، ويبدو أن هذا كان مصير خطابها إليك.

- هل معنى ذلك أنها كانت غير مرتّبة؟

- لا يا سيدي، بل إنها كانت على العكس محبّة للتنسيق والنظام، فلكل شيء عندها مكانه.

وفي تلك اللحظة دخل بوب يهزّ ذيله فقال بوارو: وكرة بوب مثلاً، هل كان لها مكان معيّن توضع فيه؟

- في دُرج المكتب في قاعة الاستقبال دائماً، الدُّرج الذي أريته لك، فما إن يفرغ الكلب من اللعب حتى تبادر السيدة إلى إيداع الكرة في هذا الدُّرج.

فقال بوارو: والآن لنعد إلى حكاية الخطاب.

فاستطردت إيلين قائلة: حين عثرت على الخطاب عرضت الأمر على آني وتداولنا فيما ينبغي أن نصنع به، ثم خطر لنا أن نسلّمه إلى الآنسة لاوسون، ولكننا ما لبثنا أن رأينا أنه لا شأن لها بالخطاب، فما دامت السيدة قد كتبته لتبعث به إلى السيد هيركيول بوارو فلِمَ لا نتولى الأمر عنها ونبعث إليه فنكون بذلك قد نفّذنا ما كانت ترمي إليه؟

قلت: هذا تفسير معقول لا غبار عليه.

فقال بوارو: أجل، هذا تفسير معقول، وإن كان قد أدهشني أن أتلقّى خطاباً بعد تحريره بما يربو على شهرين.

وصمت بوارو بُرهة ثم استطرد قائلاً: إن الآنسة أراندل قد

عهدت إليّ بهذا الخطاب للقيام بمهمة معيّنة ذات طبيعة سرية خاصة، وأنا في حيرة من أمري حقاً؛ فالآن بعدما تُوفّيت هل أقوم بهذه المهمّة أم أغفل الأمر كله؟

فأجابت إيلين على الفور قائلة: ولِمَ لا تستشير محاميها يا سيدي؟ إن السيد بيرفيس محيط بكل شؤونها وأسرارها وهو الذي بعثت تستدعيه بعد سقوطها من أعلى الدرَج.

فقال بوارو: بالمناسبة، متى وقعت الآنسة أراندل من أعلى الدرَج؟

فانبرت الطاهية آني تجيب على الفور قائلة: أنا أذكر تاريخ الحادث تماماً، كان ذلك في اليوم التالي لعطلة المصرف بمناسبة عيد الفصح؛ فقد كان يوم عطلتي ولكنني اضطُررت إلى الانتظار إلى اليوم التالي بسبب الحادث والضيوف الذين كانوا عندنا.

فأخرج بوارو مفكّرته وقلّب فيها ثم قال: عطلة عيد الفصح كانت في الثالث عشر من الشهر، إذن فقد وقعت الآنسة أراندل من فوق الدرَج في الرابع عشر، ثم حرّرت إليّ هذا الخطاب بعد ثلاثة أيام من وقوع الحادث أي السابع عشر من شهر نيسان (أبريل). ومما يؤسف له أن الآنسة أراندل قضت نحبها فلم أعُد أدري على وجه اليقين كنه المهمّة التي أرادت أن تعهد بها إليّ.

ثم ما لبث أن غمغم بصوت خافت كمن يحدّث نفسه قائلاً: تُرى هل هذه المهمّة خاصة بأحد الضيوف الذين كانوا في البيت؟

أصابت تلك الإشارة المرمى، حيث لمعت عينا إيلين ونظرت إلى الطاهية، فردّت عليها الأخيرة بنظرة فهم وإدراك، ثم قالت

إيلين: لا بدّ أن الأمر متعلّق بالسيد شارل.

فسألها بوارو: هل لك أن تذكري لي أسماء مَن كانوا في ضيافة الآنسة أراندل في أثناء عطلة عيد الفصح.

فذكرت له الأسماء التي استفسر عنها، فعاد يسألها قائلاً: ومتى رحلوا؟

فأجابت قائلة: صباح الأربعاء يا سيدي، ولكن الدكتور تانوا وزوجته السيدة بيلا رجعا مرّة أخرى في عطلة الأسبوع التالي لأنهما كان مهتمَّين بالاطمئنان على صحة الآنسة أراندل.

- والسيد شارل والسيدة تريزا، ألم يرجعا؟

- بلى، رجعا، ولكن في عطلة الأسبوع الذي يليه، العطلة السابقة لوفاة الآنسة أراندل.

فنهض بوارو واقفاً وهو يقول: شكراً لكما على هذه المعلومات القيّمة، ولكن لا بدّ لي من الاتصال بالسيد بيرفيس محامي الآنسة أراندل.

ثم صحبتنا إيلين إلى الباب الخارجي والكلب بوب يتواثب حول أقدامنا وكأنه يودّعنا.

* * *

الفصل التاسع

قلت لبوارو بعدما غادرنا فيلاّ ليتل غرين: والآن، أتُراك اكتفيت بما ظفرت به من معلومات؟

- لقد زال الغموض الذي كان يكتنف الخطاب، فقد عرفت المقصود بحادث كرة الكلب.

فقلت: وعرفت أنه حادث تافه طبعاً؛ كرة ملقاة على رأس الدرج وفي ظلمة الليل داست عليها الآنسة أراندل فتعثرت وتدحرجت على الدرج، ولكن عنقها لم تُدَق.

فعقّب بوارو قائلاً: ليس الأمر بهذه البساطة التي تصفها يا عزيزي هيستنغز.

فتأمّلته باستغراب وقلت متسائلاً: ماذا تعني يا تُرى؟

- أعني أنني عرفت شيئاً لم تفطن إليه أنت.

- حقاً؟! وماذا يكون ذلك؟

- لقد رأيت مسماراً مدقوقاً في أسفل جدار الدرج عند الدرجة العليا.

- وماذا في ذلك؟ ربما دُقّ ذلك المسمار لغرض معيّن.

- وهذا الغرض هو الذي يثير شكوكي. أنا أستطيع أن أتخيّل الغرض من دقّ ذلك المسمار بسهولة، فإذا أنت أردت أن تشدّ خيطاً أو سلكاً عبر الدرَجات فسوف تدقّ مسماراً في الجدار الأصم المسدود للدرج ثم تربط فيه الخيط وتعقده حول سياج الدرج في الناحية المقابلة، فإذا خطوت فوق الدرجة العليا تعثّرت في الخيط المشدود وتدحرجت على الدرج.

فهتفت قائلاً: يا إلهي! ما الذي ترمي إليه يا بوارو؟

- لا شيء إلا أن أفسّر المقصود بعبارة «حادث كرة الكلب»، العبارة التي ذكرتها الآنسة أراندل في خطابها.

- أرجوك استمرّ في حديثك.

- لقد لاحظ بعضهم أن الكلب اعتاد أن يترك كرته فوق رأس الدرج، وهي عادة مؤذية قد تؤدّي إلى خطر جسيم إذا ما وطئ أحدهم الكرة وانزلقت قدمه. لقد اغتنم أحدهم الفرصة وحاول أن يدبّر جريمة قتل محكمَة بحيث تبدو وكأنها قضاء وقدر، فدقّ المسمار وشدّ خيطاً يعترض الطريق لأنه يعلم أن الآنسة أراندل تقوم عادة في جوف الليل إذا ما أصابها الأرق فتهبط إلى الدور الأرضي لتشغل وقتها بأي عمل في أثناء فترة الأرق.

فهتفت قائلاً: يا لها من خطّة ماكرة خبيثة!

- أجل، خطّة شريرة، ولكن تدبير القاتل فشل إذ لم تُصَب الآنسة أراندل إلا بمجرّد خدوش ورضوض بسيطة.

وصمت بوارو بُرهة ثم استطرد قائلاً: وقد أجمع القوم على أنها داست على الكرة فانزلقت قدمها، وكانت الكرة موجودة فوق الرأس الدرج كدليل حاضر يؤيّد ما ردّدته الألسن، ولكن الآنسة

أراندل صفا ذهنها بعد الحادث فشعرت بأنها لم تدُس على الكرة، ثم ذكرت شيئاً آخَر وهو أن جميع مَن في البيت التفّوا حولها وهي مكوّمة عند أسفل الدرج عدا بوب، مع أنه المفروض أن كلبها هو أول من يُهرع إلى جانب سيدته المحبوبة، ولكنها لم تسمع نباحه بجانبها لأنه كان خارج البيت في تلك الليلة.

وصمت بوارو هنيهة ثم استطرد قائلاً: كل هذا تخمين واستنتاج طبعاً، ولكنني أعتقد أن الآنسة أراندل كانت قد أودعت الكرة في دُرج المكتب بعد أن فرغ بوب من اللعب بها كما هو دأبها دائماً، وبعد ذلك خرج بوب من البيت ثم لم يعُد إليه إلا عند الفجر، لذا من المستحيل أن يكون بوب قد عاود اللعب، وبالتالي فإنه من المستحيل أن يوجد سبب يدعو إلى إخراج الكرة من الدُّرج، ولو أن بوب نطق لما خرج حديثه عن تخميناتي، ولكن ممّا يؤسف له أنه شاهد أخرس.

فقلت معترضاً: ألا ترى أن هذا التحليل مجرّد تكهّنات لا سند لها يا عزيزي بوارو؟

فقال: بل لها سند في بعض الكلمات التي ردّدتها أراندل وهي تهذي في أثناء احتضارها. لقد قالت كما ذكرت لنا إيلين «الكرة» و«الكلب على الزهرية»، وقد حملت إيلين هذه الكلمات على محمل هذيان الاحتضار ولكنني أخذتها على معنى آخَر؛ فقد ذكرت أنني شاهدت زهرية مرسوماً عليها كلب في قاعة الاستقبال، ولذلك عُدت إلى القاعة وأخذت أفحص الزهرية باهتمام.

فسألته قائلاً: وأي شيء كانت تمثّله الصورة المرسومة على الزهرية؟

فأجاب قائلاً: كانت تمثل كلباً جالساً خارج البيت على العتبة والباب موصد. لعلك أدركت الآن إلى أين اتجهت خواطر الآنسة أراندل في أثناء احتضارها. لقد أرادت أن تقول: الكلب خارج البيت مثل الصورة المرسومة على الزهرية، فمن المستحيل أن يكون هو الذي ترك الكرة على رأس الدرج.

فهتفت قائلاً: بوارو، أنت عبقري حقاً! كيف استطعت أن تربط الوقائع بعضها ببعض فتصل إلى هذه النتيجة المذهلة؟!

فقال ضاحكاً: ألم تعرف إلا اليوم أن هيركيول بوارو عبقري لا نظير له في الدنيا.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: ومع ذلك فقد كانت المسألة واضحة، وبشيء من التفكير المنطقي المنظّم لم يكن عسيراً على أي إنسان أن يربط بين الوقائع ليصل إلى نفس الاستنتاج كما فعلت. هل نسيت ما ذكرته الآنسة أراندل في خطابها من أن الهواجس استبدّت بها منذ حادث كرة الكلب وأنها كانت تتّهم نفسها بأنها امرأة عجوز مخرّفة أحياناً وأن الأفكار التي تدور في خواطرها ما هي إلا مجرّد وساوس.

ثم ابتسم بوارو واستطرد قائلاً: كان خطابها غامضاً، ولكن بعد هذا التحليل الذي سردته عليك يمكن أن أقرّر بثقة أنها أرادت أن تقول إن شخصاً ما أراد أن يقتلها، ثم ماتت بعد ذلك بفترة وجيزة، فهل أثار شكوكَك موتُها الذي أعقب محاولة قتلها؟

فقلت: ولكن القوم أجمعوا على أنها ماتت ميتة طبيعية.

- وهل كانت ميتة طبيعية حقاً؟

فقلت متهكّماً: أتظنها ماتت مسمومة؟

فهزّ بوارو كتفيه قائلاً: يجب أن أعترف بأن جميع الظواهر توحي بأنها ماتت ميتة طبيعية.

فقلت: إذن لا مفرّ من أن تعود إلى لندن خالي الوفاض.

- لا يا صديقي، نحن لن نعود إلى لندن.

فحملقت إليه باستغراب قائلاً: ماذا تعني يا صديقي؟

- في هذه القضية يوجد قاتل، وهيركيول بوارو لا يمكن أن يهدأ بالاً إلا إذا اقتنص القاتل. أنا لن أعود إلى لندن إلا بعد أن أفرغ من تحرّياتي، لا بدّ أن ألتقي بكل مَن لهم صلة بالآنسة أراندل.

- والدور اليوم على مَن يا تُرى؟

- سوف نذهب لمقابلة الدكتور غرينغر الذي كان يتولى علاج الآنسة أراندل.

* * *

كان الدكتور غرينغر كهلاً في الستين من العمر، وقد تلقّانا بمودّة وترحاب، ثم سألنا عمّا نبغي من زيارته فساق إليه بوارو أكذوبة محبوكة على الفور قائلاً: أنا سوف أضع كتاباً عن حياة الجنرال أراندل وأعماله المجيدة في بلاد الهند يا سيدي، وقد عرفت أنه عاش طويلاً في ماركيت بيسنغ فجئت أنشد منك بعض المعلومات.

فقال الطبيب: لقد أقام طول حياته في ماركيت بيسنغ حقاً، ولكنني حديث العهد بهذه البلدة لأنني جئت إليها في عام ١٩١٩ فمعرفتي به محدودة.

- ولكنك تعرف ابنته الآنسة إميلي أراندل حق المعرفة.

- هذا صحيح؛ فأنا الذي كنت أتولى علاجها.

فقال بوارو: لقد كنت أُمنّي نفسي بأن تمدّني الآنسة أراندل بالكثير من المعلومات عن أبيها، وقد كانت صدمة شديدة لي حينما عرفت أنها ماتت في أول مايو وأصبحت في حيرة لا أدري ماذا أفعل!

فقال الدكتور غرينغر: كان للجنرال أراندل خمسة أبناء، ولد واحد وأربع بنات، وقد لحقتهم المنية جميعاً.

- هل له أقارب آخرون؟

- يمكنك أن تتصل بأحفاده، أعني شارل أراندل وأخته تريزا، وكذلك السيدة تانوا، وإن كان يغلب على ظني أنك لن تظفر منهم إلا بالقليل لأن الجيل الجديد لم يعُد يحفل بتاريخ الأجداد والأسلاف كما تعرف. ولكن دعني أسألك: هل الجنرال أراندل شخصية تاريخية ذات شأن تحملك على أن تؤلف عنه كتاباً؟

- نعم يا سيدي، فقد كان له دور مشهود في الهند.

فأومأ الطبيب برأسه مؤمّناً وقال: صدقت؛ فقد سمعت الآنسة بيبودي تردّد أمامي أكثر من مرّة قصصاً عن أيامه في الهند، ولعلك تستطيع أن تظفر منها بمعلومات ذات شأن إن قابلتها لأنها كانت وثيقة الصلة بالآنسة أراندل.

فاستفسر منه بوارو عن عنوان الآنسة بيبودي، ثم سأله عن عنوان شارل أراندل فقال له: شارل؟! إنه شاب تافه لا شأن له، مجرّد شاب مرح شأنه شأن أبناء الجيل الجديد، لا يحفل بتاريخ

أسرته أو أجداده، وقد قضى حياته يطوف العالم سعياً وراء المتع والملذات.

- هل كانت عمّته الآنسة أراندل تحبه؟

- الحق أنني لا أدري! ولكن إميلي لم تكن بالمرأة الحمقاء، فما كان يخفى عليها أن شارل يحوم حولها سعياً وراء مالها.

- هل كان موتها فجائياً؟

- يمكنك أن تقول هذا؛ وإن كانت تعاني من أمراض الشيخوخة، رغم أنها لم تشأ أن تعترف بذلك قطّ، وقد نجت بأعجوبة من عدّة أزمات ألمّت بها.

فقال بوارو: معذرة إن وجّهت إليك هذا السؤال فإن الأمر شائع معروف. لقد بلغني أنها حرمت أسرتها من الميراث، فهل هذا صحيح؟

فأجاب الدكتور غرينغر قائلاً: لقد أوصت بكل ثروتها لوصيفتها الحمقاء، وإن كنت لا أعرف السرّ في هذا حقاً!

فقال بوارو معقّباً: يشعر المرء بالامتنان نحو الشخص الذي لازمه وأشرف على رعايته في شيخوخته، وهذا أمر طبيعي لأنه ينشأ بين الشخصين نوع من المودة والتآلف في مثل هذه الحالات.

فأثارت هذه الكلمات الدكتور غرينغر فهتف بانفعال قائلاً: مودّة وتآلف؟! إن الآنسة أراندل كانت تعامل الآنسة لاوسون وكأنها جارية من الرقيق، كانت تعنّفها وتزجرها وتحقر من شأنها وتزدريها دائماً.

فقال بوارو متسائلاً: ألا يجوز أن يكون من بين مقتنيات الثروة شيء من رسائل الجنرال أراندل بعدما آلت إلى تلك الوصيفة الآنسة لاوسون؟

- بلى، فحاول أن تقابلها فقد تمدّك بشيء من المعلومات.

- هل لك أن تذكر لي عنوان شارل وأخته تريزا؟

- يؤسفني أنني لا أعرفه، ولكن ربما كان مساعدي الدكتور دونالدسون على علم به لأنه خطيب تريزا.

ثم استدعى مساعده من الغرفة المجاورة، وحين أقبل الشاب استفسر منه الدكتور عمّا يريد فأجاب قائلاً: لا أعتقد أنني أعرف عنوان شارل، ولكن إليك عنوان أخته تريزا.

ثم حيّا بوار الطبيبَين وانصرف شاكراً.

* * *

الفصل العاشر

قلت لهيركيول بوارو بعدما غادرنا بيت الطبيب: هل من الضروري أن تسوق إلى الناس كل هذه الأكاذيب يا بوارو؟ فأنت مرّة تريد أن تشتري الفيلاّ ومرة أخرى تريد أن تؤلّف كتاباً عن حياة الجنرال أراندل ومرّة ثالثة...

فقاطعني قائلاً وهو يضحك: ولكن ألا ترى أن هذه الأكاذيب هي التي أتاحت لي أن أحصل على المعلومات التي تنقصني؟

فسألته قائلاً: هل تظن أن الدكتور دونالدسون اقتنع بأكذوبتك؟

فهزّ بوارو رأسه سلباً وقال: لا أظن؛ فقد رأيته ينظر إليّ بنظرات تنمّ عن الريبة والشكّ.

فعدت أسأله قائلاً: والآن ما هي خطوتنا التالية؟

فأجابني قائلاً: سنقوم بزيارة الآنسة بيبودي التي حدّثنا عنها الدكتور غرينغر؛ فأغلب ظنّي أنها من الطراز الثرثار الذي يذخر حديثه بسيل من المعلومات.

* * *

طرقنا باب الآنسة بيبودي وقلنا بأننا قادمان من طرف الدكتور غرينغر، وبعد دقائق أقبلت تتهادى في ثوب أسود، وكم كانت دهشتنا حين ابتدرتنا بهذه الكلمات: ألديكما شيء للبيع؟

فأجابها بوارو قائلاً: لا يا سيدتي، ليس لدينا ما يُباع.

فاستوت قاعدة على أحد المقاعد، ثم أشارت إلينا تدعونا إلى القعود وقالت: إذن ما الذي تريدانه منّي؟ لقد حسبتكما من الباعة المتجوّلين. أنا آسفة وأعتذر إليكما!

وللمرّة الثانية أخذ بوارو يسرد عليها أكذوبته عن تأليفه كتاباً عن الجنرال أراندل دون أن يتلعثم أو يطرف له جفن، فسألته الآنسة بيبودي قائلة: إذن فأنت تنوي أن تؤلّف كتاباً؟

- أجل يا سيدتي.

- بالإنكليزية؟

فأومأ إيجاباً، فقالت: ولكنك أجنبي فيما يبدو لي، فهل كنت سكرتيراً للجنرال؟

فغمغم بكلمات مبهمة فهمت منها المرأة المسكينة أنه كان كذلك، ثم أردف فوراً حتى لا يتيح لها فرصة لاستجوابه قائلاً: أظن أنك كنت تعرفين الجنرال أراندل حق المعرفة، أليس كذلك؟

- بلى، كنت أعرفه تماماً. لقد كان سكّيراً.

وران علينا الصمت بُرهة ثم استطردت الآنسة بيبودي قائلة: والآن، ما الذي تريد أن تعرفه منّي؟

- أي شيء وكل شيء، أي شيء عن أسرته، الإشاعات الأقاويل حياته المنزلية.

فصمتت الآنسة بيبودي بُرهة مفكرة ثم قالت: أنا لا أكاد أعرف شيئاً عن حياته في بلاد الهند. دائماً كان يتحدّث عن حياته في الهند عشرات المرات في اليوم الواحد، ولكن حديثه كان يثير ضجري فكنت أسرح بخواطري ولا أكاد أعي حرفاً مما يقول.

فسألها بوارو قائلاً: لقد كنت وثيقة الصلة بأفراد أسرته، أليس كذلك؟

- بلى، إن معرفتي بهم وثيقة، كانت ماتيلدا هي أكبر أولاده سناً، وكانت فتاة مرحة تحترف مهنة التدريس، أما إميلي فقد كانت رياضية تجيد ركوب الخيل وكانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تعارض أباها وتقف في وجهه، فكانت تجمع زجاجات الشراب وتخفيها في مكان ما حتى تبعدها عن متناول يده. ثم يأتي بعد ذلك توماس، وقد عاش طوال عمره عزوفاً عن النساء، ولكنه حين تزوج كان زواجه صدمة للجميع.

ثم أطلقت الآنسة بيبودي ضحكة مرحة صادرة من أعماق قلبها واستطردت قائلة: أما إيزابيلا فكانت فتاة بسيطة ساذجة، ورغم أنها دميمة إلا أنها تزوجت زيجة طيبة. لقد اقترنت بأستاذ في جامعة كامبريدج. صحيح أنه كان رجلاً عجوزاً ولكنه كان يشغل منصباً رفيعاً وله أبحاث رائعة في الكيمياء، ورغم أنها لم تكن تفهم شيئاً عن أبحاث زوجها أو اهتمامه إلا أنهما كان زوجين سعيدَين. وأخيراً تأتي أنييس، وهي أصغر الجميع سناً وأجمل أخواتها، ورغم ذلك فقد قضت حياتها عانساً لم تتزوج.

فسألها بوارو قائلاً: لقد قلت إن زواج توماس كان صدمة للجميع، فما السبب؟

- أجل، كان زواجه صدمة للجميع ومثيراً للدهشة. هل تذكر قضية السيدة فارلي التي اتّهمت بأنها دسّت السم لزوجها فقتلته (وإن كانت قد بُرّئت ولم تثبت التهمة ضدها)؟ تصوّر أن توماس، توماس الذي عاش حياته عزوفاً عن النساء، وقع في غرام تلك المرأة وتزوجها!

فقال بوارو: وهل كان زواجه بها صدمة أليمة لأخواته؟

- نعم، وقد رفضن جميعاً أن يستقبلنها. وقد أغضب سلوكهن توماس فرحل عن البلدة وعاش في إحدى الجزر البعيدة، ولم يعُد أحد يسمع عنه أو عن زوجته شيئاً، إلا أن الشيء المؤكّد أنها لم تدسّ السم لزوجها الثاني توماس فقد وافتها المنية قبله بثلاث سنوات. وقد أنجبا ولداً وبنتاً هما شارل وأخته تريزا.

فسألها بوارو قائلاً: وهل ظلاّ يعيشان بمعزل عن الأسرة كما عاش أبوهما من قبل؟

- لا، بل كانا يتردّدان على عمّتهما إميلي دائماً، وكذلك كانت بيلا، ابنة أختها، لا تفتأ تزور خالتها من وقت لآخَر.

- أهي متزوجة؟

- نعم، لقد تزوجت أجنبياً يوناني الجنسية يُدعى الدكتور تانوا، وهو رجل لطيف المعشر حلو الحديث، وإن كنت لا أطمئن إلى سلامة نواياه؛ فهو يبدو لي خبيث النفس.

- وهل هما زوجان سعيدان؟

- لا أدري؛ فالحكم على أي زواج بأنه سعيد أو غير سعيد مسألة في غاية الصعوبة، وقد أنجبا من هذا الزواج ولداً وبنتاً معتلَّي

الصحة، وهما يعيشان في أسمرة في بلاد الحبشة.

فتساءل بوارو قائلاً: ولكنهما في إنكلترا الآن؟

- نعم، لقد حضرت بيلا إلى إنكلترا في شهر مارس مع زوجها، وهما على وشك العودة فيما أعتقد.

- وهل كانت إميلي تحب ابنة أختها بيلا؟

- تحبها؟ إن بيلا ساذجة وتمضي وقتها في رعاية طفليها.

- وماذا كان رأيها في الدكتور تانوا؟ هل كانت راضية عنه؟

- لا، لقد كانت غير راضية عنه بكل تأكيد، ومع هذا فقد كان حديث ذلك الخبيث يطيب لها؛ فهو ذكي مهذّب السلوك، وإذا سألتني رأيي فيه قلت بأنه رجل جشع له أنف حساس يشم رائحة المال حيث يكون.

فقال بوارو: لقد بلغني أن الآنسة أراندل خلّفت ثروة ضخمة بعد وفاتها، فهل هذا صحيح؟

فاعتدلت الآنسة بيبودي في مقعدها وقالت: هذا صحيح، وهو ما أذهل الناس جميعاً، فعند وفاة الجنرال لم يترك لأولاده إلا ثروة محدودة القدر قُسّمت بين ابنه وبناته، وعند رحيل توماس وإيزابيلا أخذا معهما نصيبهما من الأوراق المالية، أما إميلي وأخواتها فكن يعشن عيشة شح وتقتير وكنّ يستثمرن مدّخراتهن استثماراً طيباً، ولما ماتت ماتيلدا قُسمت ثروتها بين إميلي وأنييس، وبوفاة أنييس آلت ثروتها كلها إلى إميلي، وهكذا أصبحت إميلي ذات ثروة ضخمة، ثم أوصت بها كلها إلى وصيفتها الآنسة لاوسون!

- تُرى هل أدهشتك تلك الوصية؟

- بل أدهشت الجميع؛ فقد كانت إميلي تردّد طوال حياتها بأنها ستترك ثروتها لابنة أختها بيلا وابن أخيها شارل وأخته تريزا، والواقع أن هذا كان هو فحوى وصيتها الأولى، كما أوصت لخدمها بمبالغ نقدية متفاوتة، ولكننا فوجئنا بوصية جديدة أوصت فيها بكل شيء لوصيفتها الآنسة لاوسون بعد وفاتها.

فسألها بوارو قائلاً: تُرى هل حرّرت تلك الوصية الجديدة قبيل وفاتها مباشرة؟

فرمقته الآنسة بيبودي بنظرة متفحّصة وقالت: أتريد أن تشير بهذا إلى أنها حرّرتها في مرض الموت بتأثير من الآنسة لاوسون فتكون الوصية بذلك قابلة للطعن؟ إن الآنسة لاوسون امرأة حمقاء لا يمكن أن تفرض تأثيرها على أحد يا عزيزي، ثم إن الآنسة إميلي كانت امرأة قوية الشكيمة عنيدة الرأي لا يمكن أن تخضع لتأثير مخلوق. الواقع أن الوصية عند فضّها أذهلت الآنسة لاوسون نفسها فلم تصدّق ما كانت تسمعه وهي تُقرأ عليها، أو هذا هو ما ردّدته على الأقل.

وصمتت الآنسة بيبودي بُرهة ثم استطردت قائلة: لقد حُرّرت الوصية قبل الوفاة بعشرة أيام، ويرى المحامون أنها وصية سليمة لا سبيل إلى الطعن فيها.

- هل اتخذ أحدٌ أية إجراءات للطعن في الوصية؟

- أعتقد أن تريزا استطلعت في الأمر رأي بعض المحامين، وأغلب الظن أنهم نصحوها بالاستسلام للأمر الواقع.

فقال بوارو: ولكن لا شكّ في أن أفراد أسرة الآنسة إميلي ناقمون على الآنسة لاوسون نقمة شديدة، أليس كذلك؟

- بلى، فهذه هي الطبيعة البشرية، ولا لوم عليهم في هذا ولا تثريب.

وبعد فترة قصيرة من الصمت قال بوارو: هل كانت الآنسة إميلي تؤمن باستحضار الأرواح حقاً؟

- إذا كنت تظن أن روح الجنرال أراندل هي التي أمرت إميلي بأن توصي بثروتها لوصيفتها فأنت واهم في هذا؛ فقد كانت تجد في استحضار الأرواح مجرّد تسلية لطيفة كلعبة البريدج مثلاً. تُرى هل قابلت الأختين تريب؟

- لا، أنا لم أحظَ بهذا الشرف بعد.

- إنهما تزعمان أن لهما القدرة على استحضار الأرواح، وكانت إميلي تحضر الجلسات التي تعقدها الأختان تريب على سبيل التسلية فقط كما أشرت من قبل.

فسألها بوارو قائلاً: وما رأيك في شارل أراندل؟

- إنه شاب عربيد ماجن، دائماً مفلس وغارق في الديون، وهو جشع وراء المال، وما كان ليتردّد في أن يقتل عمّته كي يظفر بجنيه واحد. فطالما حرّر شيكات بغير رصيد، ثم يسارع إلى عمّته لتنقذه من أزمته، بل هو لا يتورّع حتى عن التزوير.

- وما رأيك في أخته تريزا؟

- إنها فتاة ماجنة من الجيل الحديث الفاسد المنحلّ، تنفق

على ثيابها وسهراتها كل دخلها، بل أعتقد أنها تصرّفت في جزء من الأوراق المالية التي تملكها.

- وما قولك في خطيبها الدكتور دونالدسون؟

- الدكتور غرينغر هو الذي كان يتولى علاج الآنسة أراندل، أما دونالدسون فلم يكن له شأن بها.

وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: ودونالدسون شغوف بالتجارِب العلمية على أية حال، ولكنني أحسبه لا يستطيع التفرقة بين الحصبة والصداع.

فضحك بوارو وقال: إن لك فيه رأياً عجيباً! هل هو مهتم بإجراء التجارب ليدرس مرضاً معيّناً؟

- لا أدري، ولكنه لا يملك من المال ما يُتيح له فرصة لإجراء التجارب التي يتمنّاها.

ثم شكرها بوارو على المعلومات التي زوّدته بها ونهض منصرفاً، وقالت له الآنسة بيبودي وهي تصافحه: عندما يظهر كتابك في السوق فلا بدّ أن توافيني بنسخة منه.

فأجابها بوارو قائلاً: طبعاً، طبعاً.

ولكننا حين خرجنا إلى البهو تناهى إلى أسماعنا صوت الآنسة بيبودي وهي تطلق في أعقابنا ضحكة مدوية مليئة بالسخرية.

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف حينما اقترح بوارو أن نذهب لزيارة الأختين تريب الوسيطتين اللتين تزعمان أن لهما القدرة على استحضار الأرواح، وقد أرشدَنا أحد الأطفال إلى دارهما. وأسرعت إحدى الأختين إلى لقائنا، وكانت جمة النشاط ذات حيوية رغم أنها في الخمسين، وقد ابتدراها بوارو قائلاً: معذرة إن تطفّلت عليك بهذه الزيارة يا سيدتي، فقد حضرت إلى ماركيت بيسنغ لمقابلة سيدة معيّنة فقيل لي إنها غادرت البلدة وإنك قد تعرفين عنوانها.

- حقاً؟ ومَن تكون تلك السيدة؟

- هي صديقة لك، أعني الآنسة لاوسون.

فقالت: إنها من أفضل صديقاتنا. تفضّل بالجلوس يا سيد باروتي. آه! ها هي أختي إيزابيل. دعيني أقدّم لك السيد باروتي.

ففي تلك اللحظة جاءت امرأة متقدّمة في السن إلى الغرفة، وإن كانت ترتدي فستاناً لا يصلح إلا لفتاة في السادسة عشرة من العمر، فاستطردت المرأة موجّهة الحديث إلى أختها قائلة: هذان السيدان صديقان لعزيزتنا ميني لاوسون.

ثم التفتت إلى بوارو فسألته قائلة: هل رأيت عزيزتنا ميني منذ عهد قريب؟

- لا، فقد انقضت سنوات دون أن نلتقي لأنني كنت غائباً عن البلاد، لذلك أسعدني أن أسمع أنها ورثت ثروة ضخمة.

فهتفت إيزابيل: إن ميني سيدة طيّبة تستحق كل خير نالته يا جوليا. أتذكرين جلسة استحضار الأرواح الأخيرة؟ لقد كتبت الأرواح بوضوح حرف الباء، سيد قادم من الخارج يبدأ اسمه بحرف الباء.

فقالت إيزابيل مؤمّنة: تماماً، تماماً. لقد صدقت النبوءة، إن الأرواح لا تكذب أبداً.

ثم التفتت إلى بوارو وسألته قائلة: هل تؤمن بالأرواح يا سيد باروتي؟

- الواقع أنه لا تجربة لي في هذا الصدد، ولكنني أومن بأنه توجد ظواهر عجيبة لا تفسير لها.

- هذا صحيح يا سيدي، إن للأرواح اتصالاً وثيقاً بالعالَم الأرضي.

- أظن أن الآنسة أراندل كانت مؤمنة بالأرواح وأنها كانت شغوفة بحضور الجلسات التي تعقدانها، أليس كذلك؟

فتبادلت الأختان نظرة سريعة، ثم قالت جوليا: الحق أنني لست أدري! فأحياناً كانت تبدو مؤمنة بالأرواح وفجأة تراها تنكرها، ففي الليلة التي أصابها فيها المرض ذهبت أنا وأختي لنزورها، ثم عقدنا جلسة اقتصرت علينا نحن الأربع، أعني أن

الآنسة لاوسون انضمّت إلينا في تلك الجلسة، وقد تجسّدت الأرواح في تلك الجلسة فرأينا هالة نورانية تحيط برأس الآنسة إميلي.

فعقّب بوارو قائلاً بدهشة: هذا عجيب!

فالتفتت جوليا إلى أختها قائلة: أليس هذا ما حدث يا إيزابيل، وهو أننا رأينا هالة من النور حول رأسها؟

فقالت إيزابيل: وقد تحدّثت إلينا الروح وقالت إن اسمها فاتيما.

فقال بوارو بلهجة تنمّ عن الدهشة: الروح تحدّثت إليكما؟! هل سمعتما صوتها؟

- لا، لا، بل كانت تدقّ المائدة بطريقة خفيفة فنسمع دقّاتها ونفسّرها، كانت تقول لنا: الحب، الأمل، الحياة.

- وهل أصاب المرض الآنسة إميلي أراندل في أثناء الجلسة؟

- بل بعدها، لقد أحضرنا بعض الشطائر وعصيراً ولكن الآنسة أراندل أبت أن تتناول شيئاً إذ كانت تشعر بأعراض المرض.

فانبرت إيزابيل تقول: من حُسن حظها أنها لم تكابد أوجاع المرض طويلاً؛ فقد ماتت بعد أربعة أيام.

ثم قالت جوليا: وقد تلقّينا منها بعض الرسائل بعد وفاتها. قالت إنها سعيدة جداً وإن كل شيء هناك جميل وإنها ترجو لأحبائها أن يعيشوا في حب وسلام.

فتنحنح بوارو ثم قال: ولكن هذا ليس هو الحال بكل أسف!

فقالت إيزابيل: مما يؤسف له أن ورثتها أساؤوا إلى ميني لاوسون إساءة بالغة.

وقالت جوليا: لقد شهّروا بها وأذاعوا عنها المفتريات، مع أنها امرأة طيبة كريمة السجايا.

ثم عادت إيزابيل تقول: إنها لم تكن تعرف شيئاً عن الوصية ولم يكن لها أي دخل في تحريرها، بل إنها دُهشت عندما تُليت عليها ولم تكَد تصدق أذنيها.

وقالت جوليا: أجل، لم تكن لدى المسكينة أية فكرة عن تلك الوصية، وهذا ما ردّدته عشرات المرات.

فعادت إيزابيل تقول: إن الآنسة أراندل على حق فيما فعلته؛ فقد كانت الآنسة لاوسون مخلصة لها متفانية في خدمتها، كما أن إميلي لم تكن تثق في أقاربها وتعلم أنهم يترقّبون وفاتها بصبر نافد حتى يستولوا على ثروتها.

وصمتت إيزابيل بُرهة ثم استطردت قائلة: إن شارل شاب طائش ماجن، وقد ارتكب في بعض البلاد الأجنبية جرائم تزوير وتحرير شيكات بغير رصيد، ولولا ما حظي به من عطف عمّته لكان اليوم نزيل أحد السجون. أما أخته تريزا فإنها فتاة منحلّة الخلق وأعتقد أنها مدمنة للمخدرات.

فتسائل بوارو قائلاً: وما رأيكم في أقربائها الآخرين؟

- السيدة تانوا امرأة لا غبار على سلوكها، ولكنها ألعوبة

في يد زوجها، ولا شكّ في أنه استولى على مالها وبدّده في المضاربات.

- إذن أنت تعتقدين أن الآنسة لاوسون أحقّ بثروة الآنسة إميلي من ورثتها الشرعيين؟

- هذا هو رأي؛ فقد كانت ميني متفانية في خدمة سيدتها.

صمت بوارو بُرهة ثم قال وهو يفكّر: والآن هل لك أن تخبريني بعنوان الآنسة لاوسون؟

فذكرت له العنوان، ثم قالت له وهي تشيّعه إلى الباب: أرجو أن تبلغ تحيّاتنا إلى الآنسة لاوسون؛ فإنها لم تتصل بنا منذ فترة طويلة.

ثم شدّ بوارو على يد الأختين مصافحاً مودعاً وهو يقول: تأكّدا أنني سأبلغها تمنياتكما، وآمل في أن نلتقي مرّة أخرى في إحدى جلسات استحضار الأرواح فقد أصبحت مؤمناً بها.

* * *

الفصل الثاني عشر

حين ركبنا السيارة التفت بوارو إليّ قائلاً: والآن لنعُد إلى لندن.

فغمغمت قائلاً: الحمد لله.

- ولكننا سنعود مرّة أخرى إلى ماركيت بيسنغ لأنني لم أفرغ من تحرياتي بعد.

- أغلب ظني أنك غارق في الأوهام وأنك لن تعثر على ذلك القاتل المزعوم أبداً؛ إذ لا شكّ عندي في أن الآنسة أراندل ماتت ميتة طبيعية.

- سوف نرى يا عزيزي هيستنغز، سوف نرى.

وتابعنا مسيرتنا إلى لندن في صمت لمدّة فترة من الوقت، وفجأة قلت لبوارو وكلماتي تنبض بالاستخفاف: ألا ترى أنك تبدّد وقتك سُدىً يا عزيزي بوارو؟ المرأة ماتت ميتة طبيعية ومع ذلك فأنت تحاول أن تختلق من تلك الوفاة الطبيعية جريمة قتل!

- أنا لا أحاول أن أختلق شيئاً يا عزيزي بل أحاول أن أرتّب نتائج منطقية على وقائع مادية. أنسيت المسمار المدقوق في جدار الدرَج؟

– وما أدراك أن ذلك المسمار لم يكن في ذلك الموضع منذ سنوات؟

– لأنه جديد لم يمسسه الصدأ.

– ألا يمكن أن يكون لهذا تفسير آخَر غير ارتكاب جريمة؟

– إن كان لديك تفسير للأمر فعجّل به وألقه إليّ يا هيستنغز.

أعياني أن أجد تعليلاً مقنعاً فلُذت بالصمت، ولكن بوارو استطرد قائلاً: ذلك المسمار دُقّ في الجدار بعد أن أوى الجميع إلى فُرُشهم، وهذا يحصر دائرة الاتّهام فيمن كانوا في البيت، أي الدكتور تانوا وزوجته بيلا، وتريزا أراندل وأخوها شارل، ثم الآنسة لاوسون وإيلين والطاهية.

فقلت: يمكن أن تستبعد الخدم من نطاق الاتهام طبعاً.

– ولماذا أستبعدهم وقد أوصت لهم الآنسة أراندل بشيء من المال؟ ثم إن للقتل دوافع أخرى مثل مشاجرة تسبب الحقد... إن بواعث الجريمة متعدّدة لا حصر لها.

– ولكنها جميعاً بواعث مستبعَدة.

– قد تكون مستبعَدة ولكنها محتملة، فلماذا نغفلها؟

فقلت: إذن لديك ثمانية أشخاص محلّ اشتباه لا سبعة.

– ماذا تعني يا صديقي؟ مَن يكون ذلك الشخص الثامن؟

– الآنسة أراندل نفسها، فما يدريك أنها هي التي شدّت الخيط متعمّدة كي يتعثر فيه شخص آخَر من أفراد الأسرة؟

– هذه فكرة حمقاء منك يا هيستنغز؛ فلو أنها هي التي شدّت الخيط لما تعثّرت به.

وصمت بوارو بُرهة ثم استطرد قائلاً: ولا يمكنك أن تزعم أنها نسيت الخيط المشدود لأنه توجد قرائن أخرى ترفض هذه الفكرة، فمثلاً خطابها إليّ، واستدعاؤها لمحاميها وتحرير وصية أخرى حرمت فيها ورثتها الشرعيين لشكّها في أنهم هم الذين حاولوا قتلها بتدبير مكيدة الخيط المشدود، كل هذا دليل على أن الآنسة أراندل لم تكن هي التي شدّت الخيط عبر الدرَجة العليا بهدف قتل أحد أقاربها. وأخيراً تردّدها في إرسال الخطاب إليّ بعدما فرغت من كتابته، إلا إذا كانت قد اعتقدت بأن الخطاب أُودع البريد فعلاً وهو ما أخمّن أنه هو الذي حدث.

فسألته قائلاً: وما رأيك في موضوع استحضار الأرواح؟ ألا يحتمل أن تكون الأرواح قد أمرتها بأن توصي بثروتها للآنسة لاوسون فانصاعت للأمر؟

– هذا لا يتفق مع ما عرفناه عن خُلق الآنسة أراندل وطباعها العنيدة وقوّة شكيمتها.

فقلت: لقد ذكرت لنا الأختان تريب أن الآنسة لاوسون فوجئت بفحوى الوصية وأصابها الذهول.

– هذا هو ما ردّدته هي نفسها على أسماعهما، فما يدريك أنها لم تكن كاذبة في هذا الزعم؟ ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أقطع في الأمر برأي حاسم. إن الحقائق دون سواها هي التي تعنيني.

فسألته قائلاً: وما هي هذه الحقائق؟

- أولاً سقوط الآنسة أراندل على الدرج، والذي لا شكّ فيه أن تلك السقطة كانت مُدبّرة ولم تكن عفوية. والحقيقة الثانية هي: مَن الذي يستفيد من موت الآنسة أراندل؟ وجواب هذا السؤال هو: الآنسة لاوسون.

- ولكن الآخرين كانوا يجهلون أنها حرّرت وصية جديدة، فيجب أن نعتبر أنهم جميعاً كانوا مستفيدين عند وقوع الحادث.

- هذا صحيح يا هيستنغز، ولكن يوجد أمر آخَر يجب أن لا نغفله، وهو أن الآنسة لاوسون كانت شديدة الحرص على أن لا تعرف الآنسة أراندل أن الكلب بوب قضى ليلته خارج البيت، فلماذا كان هذا الحرص من جانبها؟

- هل ترى أن هذا قرينة للاشتباه فيها؟

فأجاب بوارو قائلاً: ليس بالضرورة، فلعلها فعلت ذلك حرصاً على راحة بال سيدتها كي لا يزعجها شيء وهي طريحة الفراش.

فقلت بشيء من الحنق والانفعال: إذن ما رأيك في القضية؟

- لا رأي لي حتى الآن، أنا ما زلت أصغي إلى أقوالي.

* * *

الفصل الثالث عشر

في طريقنا إلى مسكن تريزا أراندل بادرت بوارو بقولي: بأية كذبة ستقدّم نفسك إلى المحامي؟

فأجابني قائلاً: أية كذبة يمكن أن تفي بالغرض.

فقلت: لا أظن؛ فالمحامون دُهاة أذكياء.

- دع الأمر للظروف ولا تشغل بالك بهذا الموضوع.

وطرقنا باب تريزا أراندل، وقد لبثنا في انتظارها بضع دقائق إلى أن أقبلت علينا تتهادى بخطو رشيق. كانت فتاة في الثامنة والعشرين وترتدي ثوباً في غاية الأناقة، وقد تأمّلتنا بنظرة فاحصة، وكانت نظرتها تنمّ عن البرود والاعتداد. ثم نظرت إلى بوارو بُرهة وقالت: أظن أنك السيد بوارو، أليس كذلك؟

فأجابها قائلاً: بلى يا سيدتي، ويؤسفني أن أتطفّل على وقتك النفيس. وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: لا ريب في أنك سمعت عنّي.

فقالت: أعتقد أنك صديق لاسكتلنديارد، أليس كذلك؟

- أنا رجل أهتمّ بمشكلات الجريمة يا آنسة.

فقالت تريزا بصوت ينمّ عن الملل والسآمة: إذن يحسُن بي أن أكون على حذر منك.

فتجاهل بوارو نبراتها وقال: لقد تلقّيت خطاباً من عمّتك.

فاتّسعت عيناها دهشة وقالت: خطاب من عمّتي؟! ولكن عمّاتي جميعاً أموات يتوسّدن الثرى وآخِر عمّة لي تُوفّيت منذ شهرين، أعني الآنسة إميلي أراندل، فهل من المألوف عندك أن تتلقّى الرسائل من الجثث الهامدة يا سيد بوارو؟

- أحياناً يا آنسة. نعم، أحياناً.

- وما الذي ذكرته عمّتي إميلي في خطابها؟

- سأُفضي إليك بفحوى الخطاب بعد بُرهة يا آنسة لأنه يتناول موضوعاً دقيقاً.

فصمتت بُرهة ثم قالت: وما دخلي أنا بذلك الخطاب؟ ما الذي تريده مني؟

- الإجابة على بعض الأسئلة.

- أي نوع من الأسئلة يا تُرى؟

- أسئلة تتّصل بشؤون الأسرة.

فتساءلت بفتور وازدراء قائلة: هل لك أن تذكر لي مثالاً من هذه الأسئلة؟

- بكل تأكيد. ما هو عنوان أخيك شارل؟

فضاقت عيناها قليلاً وانكمشت في نفسها ثم أجابت قائلة:

أخشى أن أجدني عاجزة عن إشباع فضولك لأننا لا نتبادل الخطابات إلا قليلاً، وأغلب ظنّي أنه غادر إنكلترا.

وران علينا الصمت بُرهة ثم قالت تريزا: أهذا كل ما تريد أن تستفسر عنه؟

- بل لديّ سؤال آخر: أتراك راضية عن الطريقة التي وزعت بها عمّتك ثروتها؟ والسؤال الثالث هو: منذ متى وأنت مخطوبة للدكتور دونالدسون؟

فنظرت إليه بنظرة استخفاف ثم قالت: ردّي على أسئلتك هو: ليس هذا من شأنك يا سيد بوارو.

فنهض بوارو واقفاً وهو يقول: ما دام هذا هو رأيك فلا يوجد ما يدعوني إلى البقاء. هيا بنا يا هيستنغز.

ثم انحنى بوارو فحيّاها وانصرف، وعندما اقتربنا من الباب جاءنا صوتها قائلاً: ارجع يا سيد بوارو.

فأطاعها بوارو دون تردّد وعاد إلى مقعده ونظر إليها مترقّباً، ثم تكلّمت تريزا أخيراً قائلة: لا داعي إلى هذه المناورات ولنتكلّم بصراحة، أنا أعتقد أنه يمكن أن تكون ذا نفع لي يا سيد بوارو.

- حقاً؟ هذا يسعدني يا آنسة، ولكن على أية صورة يمكن أن أكون ذا نفع لك؟

- بأن تحدّثني عن الطريقة التي يمكن بها إلغاء الوصية.

- هذا من شؤون المحامين يا آنسة، فالمحامي هو الوحيد الذي يستطيع أن ينصحك نصحاً سليماً مُجدياً.

– ولكن المحامين ذوو ضمائر حيّة نزيهة يا سيد بوارو، وأنا أريد أن أستعين بشخص لا يقيم وزناً للضمير ما دمت على استعداد إلى أن أدفع. وأحب أن أؤكّد لك أنني على استعداد للدفع.

فتأمّلها بوارو بُرهة ثم قال: معنى هذا أنك ترين أنني رجل لا يقيم وزناً للضمير وأنني سأتقاضى الأجر.

فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة وقالت: أنت رجل ذكي يا سيد بوارو وفي مقدورك أن تهتدي إلى طريقة ما تلغي بها الوصية.

فسألها قائلاً: هل لك أن تذكري لي مثالاً؟

– هذا شأنك أنت، فمثلاً يمكنك أن تسرق الوصية وتضع مكانها وصية أخرى مزوّرة، أو أن تختطف تلك المرأة لاوسون وتهدّدها كي تعترف بأنها خدعت عمّتي إميلي وأرغمتها على تحرير تلك الوصية في أثناء مرض الموت...

فقال بوارو برقّة ووداعة: إن لك خيالاً خصباً يبهرني ويدهشني يا آنسة.

فهزّت كتفيها دون اكتراث وقالت: ما هو جوابك على اقتراحي؟ لقد كنت صريحة معك، فإذا كان ردّك بالرفض فالباب مفتوح أمامك على مصراعيه.

فقال بوارو: إن رفض الأجور الضخمة ليس من شيمتي.

فقالت تريزا: ولكن صديقك هذا يبدو مستنكراً لسلوكك، فهل أسأله أن ينتظر في غرفة أخرى حتى نفرغ من حديثنا؟

فالتفت بوارو إليّ وقال برقّة: أرجو أن تتجاوز بُرهة عن نزاهتك وضميرك الحي وأنت تستمع إلى حديثنا يا صديقي. ولكنني أحب أن أؤكّد لك أن صديقي كتوم وشديد الإخلاص لي يا آنسة، وعلى أية حال أرجو أن تكوني على يقين من أن أي شيء أُقدم عليه لأجلك لا بدّ من أن يكون في نطاق القانون، وفي القانون ثغرات كثيرة يمكن أن ينفذ منها الإنسان كما تعلمين.

فلاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة وقالت: أنا أعرف أن القانون يمكن أن يتّسع لكل نوع من أنواع المؤامرات والألاعيب.

قال بوارو: أرجو أن تدركي أنني رجل أمين على القانون يا آنسة، وأنني حريص على سمعتي من أن تلوكها الألسن.

فقالت تريزا: هذا أمر مفهوم.

فعاد يقول: ولكنني أرسم خطاي، ولكي يتسنّى لي أن أتخيّر الوسيلة الناجعة لإلغاء الوصية يجب أن أقف على جميع الظروف والحقائق.

- هذا طلب معقول لا غبار عليه.

- إذن أجيبي على أسئلتي دون مواربة. متى حُررت تلك الوصية؟

- في اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان (أبريل).

- وفي أي يوم كتبت الوصية السابقة؟

- منذ خمس سنوات تقريباً.

- وماذا كان فحواها؟

– لقد أوصت بقدر من المال لإيلين والطاهية السابقة، أما الباقي فيُوزع بالتساوي بيننا، أعني أنا وشارل وبيلا.

– وهل كنتم تعرفون مضمون الوصية السابقة؟

– نعم، كنا جميعاً نعرف شروطها لأنه كان إذا سألها أحد منا قرضاً رفضت سؤاله قائلة: حسبك أن ثروتي ستؤول إليك بعد وفاتي.

– أما زلت محتفظة بثروتك من أبيك؟

– لا زالت لدي بقيّة منها، أما شارل فقد بدّد كل ما آل إليه. لقد ورث كل منا ثلاثين ألف جنيه، ولكن ولعي بالثياب الأنيقة كاد يقضي عليها. وهذا يذكّرني بشيء، وهو أنك لن تتقاضى أجرك إلا طبقاً للنتائج التي تتحقّق على يديك.

وساد الصمت بُرهة ثم سألها قائلاً: يوجد شيء آخر أريد أن أعرفه، هل تتعاطين المخدرات؟

– لا، ولكنني مسرفة في الشراب.

– وماذا عن العلاقات العاطفية؟

فقالت دون حياء أو تردّد: إن حياتي حافلة، في الماضي طبعاً.

– وماذا عن الوقت الحاضر؟

– ريكس فقط، أعني الدكتور دونالدسون.

– ولكنه رجل متزمّت منصرف إلى عمله ولا تطيب له الحياة التي تعيشينها، فكيف أحببتِه وما هو سبب تعلّقك به؟

فقالت تريزا: وهل يوجد سبب لوقوع جولييت في غرام روميو؟ إن الحب لا يعرف أسباباً.

- ولكن الدكتور دونالدسون رجل فقير ودخله لا يفي بثمن ثيابك يا آنسة، بل هو مفلس وفي احتياج شديد إلى المال للقيام بتجاربه العلمية، فهل أحبك لأنه كان يتوقّع أن ترثي عن عمّتك ثروة ضخمة؟ وهل لا زلتما مخطوبَين بعدما آلت الثروة إلى الآنسة لاوسون؟

- أحب أن أؤكّد لك أن علاقتنا لم تتأثر يا سيد بوارو. بالمناسبة، هل التقيت به؟

- نعم، لقد قابلته بالأمس لأستفسر منه عن عنوان شارل.

فعلا صوتها بنبرة حادة قائلة: وما الذي تريده من شارل؟

ثم جاءنا من خارج الغرفة صوت مرِح يقول: مَن هذا الذي يسأل عن شارل؟

ومن خلال الباب دخل شاب وسيم رشيق القوام، ثم نظر إلينا نظرة متألّقة وقال: ها أنا ذا شارل، فما الذي تريدونه منّي؟

* * *

الفصل الرابع عشر

يجب أن أعترف بأنه منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي على شارل تبيّنت أن في وجهه سمات النصابين والمحتالين. دخل إلى الحجرة بخطى مرحة ثم استوى قاعداً على مسند أحد المقاعد وقال: مَن هؤلاء الضيوف يا أختي الحبيبة؟

- هذا هو السيد هيركيول بوارو، وهو على استعداد لأن يؤدّي مهمّة قذرة لصالحنا مقابل قدر من المال.

فصاح بوارو محتجاً قائلاً: أنا أعترض! إنها ليست مهمّة قذرة ولكنها مجرّد خدعة نحقّق بها النوايا الأصلية لعمّتك الراحلة.

فقال شارل: إذن لنطلق عليها هذا الوصف. ولكن ما الذي جعل تريزا تفكّر في الاستعانة بك؟

- إنها لم تستعِن بي بل أنا الذي حضرت من تلقاء نفسي.

- لتقدّم إلينا خدماتك، أليس كذلك؟

- ليس كذلك بل سعياً إلى لقائك، ولكنها أبلغتني أنك متغيّب خارج البلاد.

فضحك شارل وقال بمرح: هذه الأخت الصغيرة شديدة

الحرص، تحب أن تبسط حمايتها لأنها تعرف أنك بارع في اقتناص كبار المجرمين.

فرمقته تريزا بنظرة حانقة وهي تقول: ولكننا لسنا مجرمين يا شارل!

- هذا صحيح، غير أننا على استعداد لاقتراف الجرائم. أنا مولع بالتزوير كما تعلمين وقد طُردت من جامعة أوكسفورد لأنني زوّرت شيكاً... كان هذا أيام الشباب طبعاً، أما في العهد الأخير فقد كنت أتمنّى أن أدس السمّ لعمتي حتى تموت وتؤول ثروتها إليّ، وأنا على استعداد اليوم لأن أخنق الآنسة لاوسون حتى تعود إليّ ثروة عمّتي.

ثم أطلق ضحكة مرحة وقال: تُرى هل لديك جهاز تسجيل في سُترتك تسجّل به هذه الاعترافات حتى تبعث بي إلى المشنقة؟

فقال بوارو يجاريه في مرحه: بل أنا على النقيض، أريد أن أعاونك فيما تحب دون أن أُقحمك في الوقوع تحت طائلة القانون.

- لا شكّ في أنك خبير بما في القانون من ثغرات، لذلك أعتقد أن في وسعي أن أركن إليك.

فقال بوارو: والآن لندخل في الموضوع. مَن هم شهود الوصية الجديدة؟ أعني الوصية المحرّرة يوم الحادي والعشرين من نيسان (أبريل).

- لقد حضر السيد بيرفيس المحامي ومعه كاتبه، أما الشاهد الثاني فكان البستاني.

- إذن فقد تمّ توقيع الوصية بحضور السيد بيرفيس؟

فانبرت تريزا تقول: لقد كان غير راض عن شروطها وحاول أن يُثني عمّتي عنها، ولكنها أصرّت وتشبّثت.

فسألها شارل بحدّة قائلاً: هل هو أخبرك بذلك يا تريزا؟

- نعم، فقد ذهبت بالأمس لزيارته مرّة أخرى.

فقال بوارو: هل لكما أن تسردا عليّ كل ما لديكما من معلومات عن الأسابيع الأخيرة السابقة لوفاة الآنسة أراندل؟ لقد فهمت أنكم كنتم في زيارتها بمناسبة عيد الفصح، أعني أنت وأختك والدكتور تانوا وزوجته، فهل وقع خلال عطلة الأسبوع ما استرعى انتباهكم؟

فانبرت تريزا تجيب قائلة: لا أظن. لا، لم يحدث شيء.

فالتفت إليها أخوها قائلاً بنبرة من التهكم: أنت غارقة في الحب يا عزيزتي، فلا شيء يمكن أن يسترعي انتباهك أو ينتزعك من ذهولك الغرامي مهما كان جسيماً.

ثم استدار إلى بوارو متابعاً الحديث قائلاً: إن تريزا مغرمة بشاب تافه يعمل طبيباً في ماركيت بيسنغ يا سيد بوارو. نعم، لقد وقع حادث خطير خلال عطلة الأسبوع، وهو أن عمّتي تعثرت فانزلقت قدمها وتدحرجت على الدرجات، ولسوء الحظ أن عنقها لم تُدقّ.

- ولكن كيف تعثرت قدمها؟

- لقد داست على كرة الكلب بوب في ظلمة الليل.

- ومتى حدث ذلك؟

فكّر شارل ثم أجاب قائلاً: مساء الثلاثاء، اليوم السابق لسفرنا، أي اليوم الخامس عشر من شهر نيسان.

- وهل كانت إصابات عمّتك بليغة؟

- لا، لسوء الحظ، فلو أنها قضت نحبها في تلك الليلة لكانت وصيّتها القديمة هي السارية.

- ومتى زُرت عمتك مرة أخرى؟

- في عطلة الأسبوع الأخير من الشهر.

فقال بوارو: أي في الخامس والعشرين من نيسان؟

- أظن ذلك.

- ومتى تُوفيت عمّتك؟

- في يوم الجمعة التالي، أي أول أيّار (مايو)، وقد مرضت قبل ذلك بأيام قليلة، أي يوم الإثنين السابق لوفاتها.

- وهل زرتها في أثناء مرضها؟

- لا، لأننا لم نكن نعلم أن حالتها سيئة إلى هذا الحد، ولما بلغنا الأمر حضرنا على الفور. وقد وصلت أنا وأختي بعد أن قضت نحبها.

واستمرّ بوارو في توجيه أسئلته قائلاً: ألم تُشِر الآنسة أراندل في أثناء زيارتكما السابقة لوفاتها إلى الوصية الجديدة بكلمة؟

فأجابت تريزا: لم تتحدّث عنها إطلاقاً.

وفي نفس اللحظة التي انفرجت فيها شفتاها عن هذه الكلمات كان أخوها شارل يجيب بقوله: بلى، لقد أشارت إليها.

فهتفت به تريزا قائلة: شارل!

فردّ عليها شارل وهو يتحاشى أن تلتقي عيناه بعينها قائلاً: أنت تذكرين ما حدث طبعاً، فقد رويت لك ما جرى بيني وبينها. لقد تحدثت إليّ العمة إميلي عن الوصية الجديدة بأسلوب مَن يقدّم إنذاراً نهائياً، وكانت جالسة في مقعدها الكبير في قاعة الاستقبال رافعة رأسها وكأنها ملكة على عرشها، وقالت لي إنها ضاقت بأقاربها جميعاً وأوضحت أنها تعنيني أنا وأختي تريزا بذلك، أما بيلا فليس لديها ما تأخذه عليها وإن كانت لا تثق بزوجها اليوناني؛ فهو رجل طمّاع جشع لا شكّ في أنه سيستولي على ثروة بيلا عندما ترثها. ثم أنهت كلامها بقولها إنها حرّرت وصية جديدة وتركت ثروتها كلها للآنسة لاوسون لأنها الوحيدة المخلصة لها المتفانية في خدمتها، وإن كانت غبيّة حمقاء.

فسألت تريزا أخاها: لماذا لم تحدّثني عن هذا يا شارل؟

فأجابها وهو ما زال يتحاشى النظر إلى عينيها: بل ذكرت لك كل هذا.

فسأله بوارو قائلاً: وماذا كان ردّك على الآنسة أراندل؟

- لقد ضحكت عندما سمعتها تقول ذلك وقلت لها: كما تشائين يا عمّتي إميلي، لا شكّ في أن هذا صدمة لي ولكن المال مالك وأنت حرّة في أن تتصرّفي فيه كما تشائين. كان هذا هو ردي؛ فالخشونة لا تُجدي ولا تفيد شيئاً في مثل هذه الظروف.

- وماذا كان ردّ الفعل عند عمّتك؟

- أبدت رضاها عن سلوكي بأن نقدتني عشرة جنيهات.

- إذن عرفت كيف تكتم مشاعرك؟

- الواقع أنني لم أحمل كلامها على محمل الجِد بل أخذته على أنه مجرّد تهديد فارغ وأنها لن تلبث أن تمزّق الوصية بعد شهرين أو ثلاثة، ولكن المنيّة عاجلتها لسوء الحظ.

وران علينا الصمت بُرهة، ثم قال بوارو متسائلاً: هل من المحتمل أن تكون الآنسة لاوسون قد سمعت هذا الحديث عرضاً؟

- هذا جائز؛ فالحديث بيننا لم يكن يجري بصوت خافت ومن عادة لاوسون أن تحوم هنا وهناك وأن تسترق السمع دائماً.

ثم التفت بوارو إلى تريزا وسألها قائلاً: وماذا عنك؟ ألم تعرفي ما دار بين أخيك والعمّة إميلي؟

وقبل أن تجيب انبرى شارل يقول: أنا واثق من أنني أفضيت إليك بكل هذا أيتها الأخت العزيزة.

وساد صمت قصير أجابت بعده تريزا قائلة: لو أنك أخبرتني لما نسيت قطعاً.

ثم التفت بوارو إلى شارل قائلاً: أحب أن أجلو نقطة هامة، هل قالت لك الآنسة أراندل إنها تنوي أن تغيّر وصيتها أم قالت إنها غيّرتها فعلاً؟

فأجاب شارل قائلاً: قالت إنها غيّرتها فعلاً، أنا واثق من هذا، بل الواقع أنها أطلعتني عليها.

فاتّسعت حدقتا بوارو دهشة وقال: ماذا تقول؟! هل أطلعتك على الوصية فعلاً؟

- نعم، وأنا أُقسم على هذا. ولكن هل لهذا أهمية؟

وتململت تريزا في مقعدها، فاستدار إليها بوارو فجأة وسألها قائلاً: وماذا عنك يا آنسة؟ ألم تحدّثك عمّتك عن شيء ذي أهمية في أثناء عطلة الأسبوع؟

- لم تحدّثني عن شيء، كل ما هنالك أنها نصحتني بأن أغيّر أسلوب حياتي.

- هل كان خطيبك معك في أثناء عطلة الأسبوع السابقة لوفاتها؟

- لا، فقد كان متغيّباً لحضور أحد المؤتمرات، ولكنه زارنا في الليلة السابقة لسفرنا وتناول معنا العشاء.

- ألم يحدث بينكما خلاف في أثناء ذلك اللقاء؟

- لم يحدث أي خلاف، بل كنا على وئام تام.

ثم نهض بورو كي ينصرف، وتبادلنا التحيّة مع شارل وأخته وغادرنا الغرفة، ولكنه تريث بُرهة في البهو، ثم ارتدّ مرّة ثانية إلى باب القاعة وهو يسير برفق وألصق أذنيه بالباب يسترق السمع، فجاء صوت تريزا وهي تقول لأخيها بحنق وغضب: يا لك من أحمق مجنون!

وما إن تناهت إلى أُذنَي بوارو هذه الكلمات حتى انسحب مسرعاً وغادر البيت قبل أن يشعر أحدٌ بأنه كان يتجسّس وراء الأبواب.

* * *

الفصل الخامس عشر

إذا كان مسكن الآنسة تريزا ينمّ عن الأناقة والذوق الرفيع فقد كان مسكن الآنسة لاوسون عنواناً للفوضى والإهمال؛ إذ كان الأثاث مكدّساً فيه بغير تنسيق يزحم بعضه بعضاً ويتلاصق، حتى إنك تجد مشقة في أن تجد لنفسك طريقاً بين أكوامه المرصوصة. ولم يفتعل هيركيول بوارو اسماً وإنما قدّم إليها نفسه باسمه الحقيقي، وإن لم يُشِر إلى أنه شرطي سري، ثم قال: لقد ذهبت بالأمس لمشاهدة فيلاّ ليتل غرين متذرّعاً بأنني أرغب في شرائها، ولكن كانت تلك حجة كاذبة في الواقع، وأنا سأصارحك بالحقيقة على شريطة أن يظلّ الأمر سراً بيني وبينك.

فحملقت الآنسة لاوسون إليه بعينين متسائلتين، فاستطرد بوارو قائلاً: لست أدري إن كنت تعرفين أو لا تعرفين أن الآنسة أراندل كتبت إليّ خطاباً قبل وفاتها بأيام قليلة...

وأمسك هنيهة عن الحديث ثم استطرد قائلاً: أنا شرطي سري مشهور يا آنسة لاوسون.

فاحمرّ وجهها وهي تستمع إلى هذه الكلمات، ولا أدري إلى أي شيء أُرجع سببه، هل أُرجعه إلى الفزع أم الانفعال أم الدهشة أم

الحيرة؟ وبعد بُرهة صمت قصيرة مضت تردّد قائلة: حقاً؟ حقاً؟

ثم تمالكت جأشها وسألته قائلة: أكان خطابها بشأن النقود؟

فأخذه سؤالها على غرّة، ولكنه كان من الدهاء بحيث قال على مهل: لعلك تعنين النقود التي...

وأمسك عن الكلام وتركها هي تتمّ عبارته، فقالت: نعم، النقود التي اختفت من دُرج المكتب.

- ألم تخبرك الآنسة أراندل أنها كتبت إليّ بشأن تلك النقود؟

فأجابت قائلة: لم تصارحني بهذا.

فسألها قائلاً: أكانت لديها فكرة عمّن أخذ تلك النقود؟

- طبعاً، لقد كانت تعتقد عن يقين أن...

بترت عبارتها ولم تُفصح عن اسم السارق، ولكنها ما لبثت أن استطردت قائلة: لقد كانت ترى أن هذا الحادث مسألة عائلية يجب أن يحوطها الكتمان.

فقال بوارو: لعلك قد أدركت أنني شرطي خاص يمكن أن يُفضي الناس إليّ بأسرارهم العائلية وهم مطمئنون.

فقالت: كانت شكوكها متّجهة إلى السيد شارل؛ إذ كانت له حوادث مماثلة من قبل، فهو يحرّر شيكات بغير رصيد أحياناً وأحياناً يزوّر بعض الشيكات، وكانت عمّته هي التي تسرع إلى نجدته وتنتشله من مشكلاته.

فسألها بوارو قائلاً: وكيف حدثت تلك السرقة؟

- كان في دُرج مكتبها مبلغ من المال لدفع أجور الخدم وعمّال المزرعة، ثم فوجئت الآنسة أراندل باختفاء خمسة جنيهات وثلاثة شلنات.

- ألا يجوز أن يكون أحد الخدم هو الذي...

فقالت مقاطعة: لا يمكن أن يحدث هذا من الخدم لأنهم في غاية الأمانة وقد أمضوا جميعاً سنوات في خدمتها دون أن يقع شيء من هذا القبيل، ولكن تلك السرقة وقعت في أثناء وجود السيد شارل وأقاربها في عطلة عيد الفصح.

فتساءل بوارو قائلاً: ولماذا لم تَرتَب الآنسة أراندل في الآخرين؟

- من المستحيل أن تُقدِم بيلا أو زوجها الدكتور تانوا على شيء من هذا. إنها فتاة طيبة، وإن كانت خاضعة مستسلمة لزوجها، فلو أنه أمرها أن تقتل إنساناً لما تردّدت! أما تريزا فلا تحفل بشيء من هذا، أما السيد شارل... نعم، لا بدّ أن يكون السيد شارل هو الذي أخذ الجنيهات الخمسة والثلاثة شلنات.

وبعد فترة وجيزة من الصمت قال بوارو: أنا أعرف أنك كنت محلّ ثقة الآنسة أراندل ولا شكّ في أنها كانت تُفضي إليك بدخلية نفسها، فهل صارحتك بالأسباب التي جعلتها تغيّر وصيتها؟ لقد حرّرت وصية جديدة قُبيل وفاتها تركت لك بمقتضاها كل ثروتها.

فأجابت الآنسة لاوسون بكلمات متلعثمة قائلة: هذا صحيح، ولكنني لم أكن أعرف عن تلك الوصية شيئاً على الإطلاق. لقد كان مضمونها مفاجأة شديدة الوقع عليّ، وعندما تلاها علينا السيد

بيرفيس دُهشت ولم أدرِ هل أضحك أم أبكي. نعم، كانت الوصية مفاجأة مذهلة لي، ولا سيما أنني لم أمضِ في خدمتها إلا سنوات قليلة. لقد كنت متفانية في خدمتها حقاً ولَكنني كنت أشعر أنها غير راضية عن عملي بوجه عام؛ إذ كانت تؤنّبني وتزجرني دائماً ولم أكن أجد منها معاملة كريمة عادة. الواقع يا سيد بوارو أنني وأنا أتلقي تلك الثروة داخلني شعور قوي بأنني لا أستحقّها.

فرمقها بوارو بنظرة عميقة متفحصّة ثم سألها قائلاً: هل معنى هذا أنك تنوين أن ترفضيها وأن تُعيديها إلى أصحابها الشرعيين؟

ولم تفُتْني اختلاجة عينيها عند هذا السؤال، ثم أجابت قائلة: لا أحسب أنني سأفعل ذلك. لقد أرادت الآنسة أراندل أن تخصّني بأموالها ومشيئة الأموات يجب أن تُحترَم. إن الدين يأمرنا بهذا.

- أنت امرأة متدينة طبعاً يا آنسة لاوسون.

- طبعاً، ثم إنها كانت تخشى أن يستولي ذلك الرجل على أموالها.

فتساءل بوارو قائلاً: أي رجل تعنين؟

- الدكتور تانوا، زوج الآنسة بيلا. إنه رجل جشع، وقد وضع يده على ثروة بيلا وبدّدها في المضاربات. كانت الآنسة أراندل لا تثق به إطلاقاً.

- وماذا عن الآخرين؟ أعني تريزا وشارل؟ ألم يكن مثيراً لنقمتهما أن لا ينالا شيئاً من ثروة عمّتهما؟

- بلى، لقد كان ذلك مثيراً لنقمتهما، ولكن لدى تريزا من المال ما يكفيها، وهي فتاة طائشة تبدّد دخلها على الثياب

والسهرات وليست بها حاجة إلى مال جديد، فحسبها ما لديها.

- وما رأيك في أخيها شارل؟

- إن شارل لا يستحق بنساً واحداً، إنه شاب عربيد متلاف. ثم كيف توصي له الآنسة أراندل بشيء من مالها بعد أن هدّدها؟

- هدّدها؟! أي نوع من التهديد؟ ومتى كان ذلك؟

- في عطلة عيد الفصح، مساء الأحد بالذات. طبعاً لم أكن أتجسس أو أحاول أن استرق السمع، ولكن الأمر جاء إلى أذني مصادفة.

- وما الذي سمعتِه حينئذ؟

- لقد طلب منها نقوداً فأبت، فقال لها إنه ليس من الحكمة أن ترفض سؤاله، وهي إن استمرّت في معاملته بهذا الأسلوب فإنه... آه، كان هذا هو نص كلماته: "إن ظللت على ذلك فسوف أُزيحك عن الطريق"... نعم، كان هذا هو ما قاله بالحرف الواحد.

سألها بوارو: وبماذا أجابت الآنسة أراندل على هذا التهديد؟

- لقد ردّت بقولها: سوف ترى يا شارل أنني أعرف كيف أحمي نفسي عندئذ.

- وهل صمت شارل أم ردّ عليها؟

- لقد قال لها: لا تكوني شديدة الثقة بنفسك يا عمّتي.

واستمرّ بوارو في إلقاء أسئلته بأن قال لها: لقد كنت تعرفين أن الآنسة أراندل ستحرّر وصية جديدة، أليس كذلك؟

- بل لم أكن أعرف ولم تكن لدي أية فكرة عن هذا. ألم

أخبرك بهذا من قبل؟

- أخبرتِني أنك كنت تجهلين مضمون الوصية، ولكنني أسألك عمّا إذا كنت تعرفين أن الآنسة أراندل كانت تنوي تحرير وصية جديدة بغضّ النظر عن فحواها.

فأجابت الآنسة لاوسون قائلة: لقد استنتجت أنها تنوي أن تكتب وصية جديدة عندما بعثت تستدعي محاميها عقب سقوطها من فوق الدرَج عندما داست على كرة بوب.

- يا له من حادث رهيب!

- أجل، فقد كان من المحتمَل أن تُدَقّ عنقها.

- هل تظنين أنه من المحتمل أن تلك السقطة أثّرت على الآنسة أراندل فجعلتها تغيّر الوصية؟

- ربما، لعل تلك السقطة ذكّرتها بأن المنية وشيكة وأنها قد تقع فجأة.

- ولكنها كانت في صحة جيدة، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن نزل بها مرضها الأخير فجأة. وقد روّعنا الأمر، ففي تلك الليلة كان لدينا بعض السيدات و...

فقاطعها بوارو قائلاً: أتعنين الأختين تريب؟

- نعم، وهما سيدتان لطيفتان تؤمنان باستحضار الأرواح.

وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: هل تصدّق أن روح أمي تحدثت إليّ يا سيدي؟

- هل كانت الآنسة أراندل مؤمنة بالأرواح مثلك؟

- أحياناً تنكرها وأحياناً تؤمن بها، ولكن في ذلك المساء الذي مرضت فيه وجّهت الأرواح رسالة إلى الآنسة أراندل، وقد ثبت لي في تلك الليلة أن الآنسة أراندل نفسها تصلح وسيطة.

- حقاً؟! ومن أين جاءك هذا اليقين؟

- لقد رأينا حول رأسها هالة من النور، ولكن مما يؤسف له أنها مرضت فجأة في أثناء ذلك فانقطع الاتصال الروحاني، ثم شُغلنا بمرضها وانفضّت الجلسة.

فتساءل بوارو قائلاً: وهل استدعيتم طبيباً؟

- كان هذا أول شيء فعلته في صباح اليوم التالي.

- وماذا كان رأيه؟ هل رأى الأمر خطيراً؟

- لقد بعث إليها في المساء بإحدى ممرّضات المستشفى لتقوم على رعايتها، ولكنه كان يعتقد أنها سوف تُشفى.

- وهل أخبرتم أقاربها بمرضها؟

- خبّرناهم عندما قرّر الدكتور غرينغر أن حالتها خطيرة.

- وما السبب في إصابتها بهذه النوبة؟ أتراها تناولت شيئاً؟

- لا أظن؛ فقد كانت حريصة على اتباع نظام غذائي معيّن، وقد عزا الدكتور غرينغر مرضها إلى إصابتها ببرد شديد.

- وهل زار شارل وأخته تريزا عمّتهما في عطلة الأسبوع السابقة لموتها؟

فزمّت الآنسة لاوسون شفتيها بامتعاض وقالت: زاراها طبعاً، ولكن نيّتهما لم تكن تخفى على الآنسة أراندل.

- وما هي نيتهما في رأيك؟

فأجابت باقتضاب قائلة: المال طبعاً. إن السيد شارل لا يزور عمّته إلا ليسألها مالاً، ولكنهما لم يظفرا منها بشيء في أثناء تلك الزيارة.

فقال بوارو: وماذا عن الدكتور تانوا؟ أظنه كان يسعى وراء مالها هو الآخَر؟

- لم يزُر العمة إميلي في تلك العطلة بل جاء في يوم الأحد السابق، ولكنه لم يمكث إلا ساعة واحدة.

فسألها بوارو قائلاً: هل كانت الآنسة أراندل تحتفظ بالوصية الجديدة في البيت؟

- لا أعلم.

- مَن المشرف على تنفيذ الوصية؟

- محاميها، السيد بيرفيس.

- هل جاء بعد وفاتها وفحص أوراقها؟

- نعم، لقد فعل هذا.

تأمّلها بوارو بنظرة فاحصة وسألها قائلاً: هل تميلين إلى السيد بيرفيس؟

فضاقت عيناها وأجابت قائلة: من العسير الإجابة على هذا

السؤال. إنه رجل مهذّب يُحسِن انتقاء عباراته دائماً، ولكنني لم أكن أميل إليه كثيراً لأنني كنت أشعر بأن سلوكه المهذّب قناع يستر به خشونته.

وعندما فرغ بوارو من أسئلته نهض واقفاً واستأذن بالانصراف، وعند الباب استدار إليها قائلاً: هذا شيء ينبغي أن تعرفيه يا آنسة لاوسون.

فنظرت إليه مستفسرة فقال: إن شارل وأخته تريزا يحاولان أن يلغيا الوصية.

فتضرّج وجهها احمراراً ثم هتفت بصوت حاد قائلة: لن يستطيعا أن يفعلا ذلك، هذا هو ما قاله لي المحامي الذي استشرته.

- إذن فقد استشرت محامياً.

- ولِمَ لا؟ أليس من الطبيعي أن أفعل هذا؟

- بلى، هذا طبيعي جداً، بل أنت أحسنت صنعاً باستشارتك أحد المحامين.

وفي الطريق التفت بوارو إليّ قائلاً: تلك المرأة إما أن تكون صادقة أو ممثلة بارعة.

* * *

الفصل السادس عشر

انطلقنا بسيارتنا الأوستن الصغيرة إلى فندق دورهام لمقابلة بيلا، أي السيدة تانوا. وابتدرها بوارو قائلاً إنه قادم إليها من قِبل ابنة خالها تريزا، ثم استوينا قاعدَين على أريكة في ركن الغرفة فأخذت تنظر إلى بوارو مترقبة ما سوف يقول، فقال بوارو لها: أنت تعلمين أن عمّتك الفقيدة قد حرّرت وصية جديدة قبيل وفاتها حرمت بمقتضاها أقاربها من ثروتها وأوصت بكل شيء للآنسة لاوسون، ولكن لعلك لا تعلمين أن الآنسة تريزا وأخاها السيد شارل ينويان الطعن في الوصية سعياً إلى إلغائها؟

فأخذت السيدة تانوا نفساً عميقاً وقالت: ولكنني أعتقد أن هذا مستحيل، أعني أن زوجي استشار محامياً وكان رأيه أن إلغاء الوصية لا أمل فيه.

فقال بوارو: إن رأي المحامين ليس قاطعاً دائماً، وكثيراً ما تُصدر المحاكم أحكاماً على نقيض ما يتوقّع الناس، ولهذا ينوي السيد شارل وأخته أن يناضلا إلى آخر مرحلة في سبيل إلغائها، فما موقفك أنت؟

فبدا عليها الارتباك وأخذت تضغط على أصابعها بحيرة ثم

قالت: ولكن ما رأيك أنت، رأيك الشخصي؟

- أنا شخصياً لا أحبّذ هذا الاتجاه. إذا كان هذا هو ما رأته العمّة إميلي بشأن توزيع ثروتها فليس لنا أن نخالف مشيئتها، ولكن ألم يضايقك ما حدث؟

- بلى، ضايقني طبعاً، بل أحزنني إلى أقصى حد؛ فهذا تصرّف غير عادل ومجرّد من الإنصاف. لقد ظلمتنا جميعاً وظلمت أولادي ولم أكن أتوقع منها هذا.

- أتعنين أن تصرّفها كان شاذاً لا يتّفق مع طبيعة خُلقها؟ أتظنين أنها كانت مغلوبة على إرادتها وواقعة تحت تأثير أفسد عليها حرّية التصرف؟

فقطبت السيدة تانوا جبينها وقالت: ولكن عهدي بعمّتي أنها عنيدة الرأي قوية الشكيمة ولا يمكن أن تنصاع لرأي غيرها.

فقال بوارو: والآنسة لاوسون نفسها ذات شخصية ضعيفة ولا يمكن أن تُخضع عمّتك لرغباتها.

- هذا صحيح، فالآنسة لاوسون امرأة بسيطة، بل هي حمقاء غبية، ولا يمكن أن أتصوّر أن في مقدروها أن تدبّر مؤامرة.

فعقّب بوارو قائلاً: أنا متفق معك في هذا الرأي يا سيدة تانوا.

- ولهذا أعتقد أنه من العبث محاولة إلغاء الوصية، فضلاً عما يقتضيه ذلك من نفقات باهظة.

فسألها قائلاً: تُرى أي سبب خفي كان هو الحافز إلى تغيير الوصية القديمة؟

- لا أدري! ليست لديّ أدنى فكرة.

فقال لها بوارو: أنا لم أذكر لك مهنتي يا سيدة تانوا وأنت لم تسأليني. أنا شرطي سري خاص، وقبل أن تموت الآنسة أراندل كتبت إليّ خطاباً.

فقالت السيدة تانوا بنبرة من الاضطراب: هل كان خطابها بشأن زوجي؟

- أنا آسف يا سيدتي، فلست في حل من أن أصارحك بفحوى الخطاب.

فقالت بارتباك: إذن فالخطاب لا بدّ من أن يكون بشأن زوجي، ولكن أحب أن أؤكّد لك أنه إذا كان قد ورد في الخطاب شيء عن زوجي فهو مجرّد أكاذيب وافتراءات يا سيد بوارو.

فسألها بوارو قائلاً: هل ذكرت لك الآنسة أراندل في زيارتك الأخيرة لها أنها حرّرت وصية جديدة؟

- لا، لم تحدثني عن هذا إطلاقاً.

- وهل كان سلوكها تجاهك عادياً كالمألوف في أثناء تلك الزيارة؟

وبعد بُرهة صمت قصيرة أجابت قائلة: كان سلوكها كعادتها معي.

وكنت على يقين أنا وبوارو من أنها كانت تكذب في تلك اللحظة، وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: نعم، كانت لطيفة معي حتى إنها أهدتني دبوساً من اللآلئ وأعطتني جنيهاً لأولادي.

- وهل تغيّر سلوكها تجاه زوجك؟

- ولماذا يتغيّر؟ إنه لم يسئ إليها قط، بالرغم من أن تريزا وأخاها كانا يحاولان تسميم أفكارها ضدّه دائماً.

ثم ما لبثت أن أردفت بارتباك قائلة: ولكنك على حق. نعم، لقد تغيّر سلوكها إزاء زوجي. لقد تذكّرتُ الآن ما غاب عنّي وذلك أن خالتي أُصيبت بعُسر هضم، فذهب زوجي إلى الصيدلية وجهّز لها الدواء بنفسه فشكرته، ولكنني لاحظت أنها لم تتناوله بل أفرغته في البالوعة.

ثم سمعنا وقع أقدام في الردهة فقالت: آه، ها هو زوجي وابننا إدوارد قد رجعا من الخارج.

* * *

الفصل السابع عشر

أقبل الدكتور تانوا على زوجته يحيّيها بابتسامة مشرقة، وهُرع ابنها الأصغر الآخَر الذي يبلغ السابعة من عمره إلى أخيه الأكبر إدوارد يستفسر منه عمّا فعل في أثناء جولته مع الأب، وما إن سمع الدكتور تانوا اسم هيركيول بوارو من زوجته التي قامت بمهمة التعارف حتى بدت بوادر الاهتمام على قسمات وجهه وقال: هل أنت السيد هيركيول بوارو الشرطي السري الشهير؟ ما الذي دعاك إلى زيارتنا يا سيدي؟

- لقد جئت لأمر يتعلّق بالآنسة إميلي أراندل المتوفّاة.

- حقاً؟! وما هذا يا تُرى؟

فانبرت زوجته تجيب قائلة: لقد جاء بشأن الوصية يا عزيزي، وذلك عقب اجتماعه بتريزا.

فقال: آه، الوصية. يا لها من وصية مجحفة! ومع ذلك فهذا ليس من شأني؛ فتلك أمور عائلية ليس لي أن أتدخل فيها.

ثم سرد عليه بوارو بإيجاز مجمل الحديث الذي دار بينه وبين تريزا وشارل وركّز على رغبتهما في السعي إلى إلغاء الوصية بصفة خاصة، فقال الدكتور تانوا معقّباً بحماسة: أنا أوافق على هذا الرأي

أيضاً يا سيد بوارو، ولكنني استطلعت رأي أحد المحامين فنصحني بالعدول عن التفكير في إلغائها لأنه يرى أنها قضية خاسرة.

فقال بوارو: إن آراء المحامين قد تختلف بصدد موضوع واحد، أما أنا فأرى السير في الدعوى، فما رأيك أنت يا ترى؟

فأطلق الدكتور تانوا ضحكة مرحة وقال: أنا أوافقك على رأيك يا سيدي، فأنا أميل إلى المخاطرة دائماً. أليس هذا هو دأبي يا بيلا؟

ثم التفت إلى بوارو قائلاً: أنا لست محامياً ولكنني أعتقد أن الآنسة أراندل لم تكن في كامل وعيها حين حرّرت تلك الوصية، لم تكن مسؤولة عما تفعل، فتلك المرأة لاوسون ماكرة خبيثة.

وتململت السيدة تانوا في مقعدها فقال لها بوارو: أرى أنك لا تُقرّين هذا الرأي يا سيدتي؟

فقالت بشيء من الإحجام والتردّد: إنها امرأة طيبة عطوفة، ولم أتوسم فيها شيئاً من الخبث.

- لقد كانت عطوفة عليك أنت فقط لأنها لم تكن تخشى شراً من جانبك، ومن السهل التأثير عليك وخداعك؛ أنت سهلة الانقياد يا عزيزتي.

فاحمرّ وجه الزوجة الطيبة، ثم استطرد الدكتور تانوا قائلاً: أما بالنسبة إليّ فقد كان سلوكها مختلفاً. إنها لم تكن تحبّني أو تميل إليّ، وما حاولت أن تخفي مشاعرها تجاهي قطّ، وفي الليلة التي وقعت فيها الآنسة أراندل على الدرَج أبديت رغبتي في أن أرجع في الأسبوع التالي لأطمئنّ عليها ولكن الآنسة لاوسون اعترضت على

رغبتي وبذلت كل جهد لتحول دون قدومي، ولكنني لم أحفل باعتراضها وحضرت فعلاً فتلقّتني بامتعاض وضيق، وكان السبب واضحاً طبعاً وهو أنها تريد أن تبعد الجميع عن السيدة العجوز وتفرض عليها حصاراً لا يتخطّاه أحد سواها.

والتفت بوارو إلى الزوجة للمرّة الثانية وسألها قائلاً: ما رأيك في هذا يا سيدتي؟

فانبرى الدكتور تانوا يتكلّم دون أن يفسح لزوجته مجالاً للردّ فقال: إن بيلا سليمة النية تكره أن تُسيء الظن بمخلوق، ثم إنه يوجد شيء آخر يجب أن أصارحك به يا سيد بوارو، وهو أن الآنسة لاوسون كانت تتسلط على المرأة العجوز بواسطة الأرواح.

- وهل تؤمن أنت بالأرواح يا سيدي؟

- من السهل خداع العجائز المسنّات، ويبدو أن الآنسة أراندل تلقّت رسالة من الأرواح، من أبيها يطلب إليها أن توصي بثروتها لتلك الماكرة الخبيثة مثلاً.

فقال بوارو: وما رأيك أنت في هذا يا سيدة تانوا؟

فالتفت إليها زوجها وقال يستحثّها: تكلمي يا بيلا، أفصحي لنا عن رأيك.

فأجابت بتخاذل قائلة: أنا لا أعرف عن المسائل الروحانية إلا القليل، ولا بدّ أنك على صواب يا عزيزي.

فسأله بوارو قائلاً: لقد علمت أنك ذهبت إلى فيلاّ ليتل غرين في عطلة الأسبوع السابقة مباشرة على وفاة الآنسة أراندل، فهل هذا صحيح؟

فأجابه بنبرات سريعة قائلاً: نعم، صحيح؛ فقد ذهبنا جميعاً في عطلة عيد الفصح ثم مرّة أخرى في العطلة التالية.

فقال بوارو: لا، لا، أنا لا أسألك عن هذا، بل أسألك عن العطلة الثالثة حين ذهبت وحدك لتزور العمّة أراندل.

فنظرت السيدة تانوا بدهشة إلى زوجها وقالت: أحقاً ذهبت وحدك لتزورها؟

فأجاب قائلاً: أنت تذكرين ذلك طبعاً، فقد حدّثتك بأمر تلك الزيارة.

وبدا واضحاً على قسمات وجهها أنها لا تذكر عن تلك الزيارة شيئاً على الإطلاق، فقال زوجها: ما أضعف ذاكرتك يا بيلا!

فقالت معتذرة وعلى شفتيها ابتسامة باهتة: صدقت، أنا أعرف أن ذاكرتي على غاية من الضعف، وعذري أنني نسيت أنه مضى شهران على تلك الزيارة.

فعاد بوارو يسأله قائلاً: وهل قابلت شارل وأخته في أثناء تلك الزيارة؟

- لا، فأنا لم أمكث هناك إلا نحو نصف ساعة.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: ولكن لا بدّ لي أن أعترف بسبب تلك الزيارة. لقد كنت أُمنّي نفسي بأن أحصل منها على قرض ولكنني أخفقت في مهمّتي.

فقال بوارو: سأوجّه إليك سؤالاً وأريد عنه إجابة صريحة يا

دكتور تانوا: ما رأيك في شارل وأخته تريزا؟

فسكت هنيهة ثم أردف بكلمات بطيئة قائلاً: إنهما محتالان نصّابان لا ضمير لهما، فتريزا يمكن أن ترتكب جريمة قتل بأعصاب باردة هادئة. لقد نشأت على غرار أمها التي اتُّهمت بقتل زوجها.

- ولكن المحكمة برّأتها.

- وهل في هذا دليل على أنها بريئة حقاً؟

- وما رأيك في خطيبها الدكتور دونالدسون؟

- إنه طبيب قدير له مستقبل رائع، ولكنه يفتقر إلى المال لإنجاز تجاربه، فالأبحاث العلمية تحتاج إلى نفقات جسيمة.

اكتفى بوارو بهذه الأسئلة ثم نهض منصرفاً. وحين نزلنا إلى بهو الفندق ذهب بوارو إلى مقصورة الهاتف لإجراء حديث عاجل ووقفت أنا في البهو أترقّب عودته، وفجأة فُتح باب المصعد وخرجت منه السيدة تانوا مهرولة وسألتني عن بوارو، فلما جاء إليها ابتدرته قائلة: يوجد شيء آخر يجب أن أصارحك به يا سيد بوارو.

- هل هو شيء هام يا سيدتي؟

- بل غاية في الأهمية.

- أنا مصغٍ إليك فتكلمي.

ولكن قبل أن تتكلّم فُتح باب المصعد مرّة أخرى وبرز منه الدكتور تانوا، فأقبل على زوجته قائلاً: هل تريدين أن تُفضي بشيء إلى السيد بوارو يا عزيزتي بيلا؟

فبان التردّد والإحجام على قسمات وجهها وهمست قائلة: نعم، كنت أريد أن أسأله أن يبلغ تريزا أنني سأقف بجانبها إذا أقامت الدعوى مطالبة بإلغاء الوصية.

ثم استدارت راجعة إلى المصعد يصحبها زوجها، فمال بوارو إليّ قائلاً: إن ما قالته لم يكن هو ما جاءت لتُفضي به إلينا.

فقلت: مما يؤسف له أن حضور زوجها الفجائي روّعها فغيّرت مجرى الحديث، ولكن لعلها ستفضي إليك بما في نفسها في وقت آخر.

فهزّ بوارو كتفيه بأسى وقال: مستحيل يا عزيزي... لقد أفلتت الفرصة إلى الأبد.

* * *

الفصل الثامن عشر

قلت لبوارو متسائلاً ونحن نتناول الغداء: والآن ما رأيك فيهم وقد رأيتهم جميعاً؟

فنظر بوارو إليّ نظرة متأملة ثم أجاب بكلمات متمهّلة قائلاً: إنهم مجموعة طريفة من الناس تُثير العجب!

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: كأنني أمام صندوق الحاوي، كلما فتحته كشفت لي مفاجأة جديدة. كلما أشرت إلى أنني تلقّيت خطاباً من الآنسة أراندل قبل أن تموت قفز أمام عينَي شيء غير متوقّع، فالآنسة لاوسون تقول إن الخطاب لا بدّ أن يكون بشأن النقود التي سُرقت من دُرج المكتب، والسيدة تانوا تتساءل: "هل هو بشأن زوجي؟"، فماذا إذن بشأن زوجها؟ ولماذا تكتب إليّ الآنسة أراندل عن الدكتور تانوا؟ تُرى ما الذي فعله؟

ثم نظر بوارو إليّ واستطرد قائلاً: والآنسة بيبودي تقول: "إن شارل أراندل لا يتورع عن قتل عمّته في سبيل الحصول على جنيه واحد"، والآنسة لاوسون تقول: "إن بيلا خاضعة مستسلمة لزوجها، فلو أن الدكتور تانوا أمرها بأن ترتكب جريمة قتل لما تردّدت أو أحجمت"، والدكتور تانوا يقول: "إن شارل وتريزا نصّابان محتالان لا ضمير لهما"، ثم يشير إلى أن أمهما كانت قاتلة

وأن تريزا على غرار أمها يمكن أن تُقدِم على ارتكاب جريمة قتل بأعصاب باردة هادئة.

ومرّ بوارو براحته على جبينه ثم استطرد قائلاً: إن لكل منهما في الآخَر رأياً عجيباً؛ فالدكتور تانوا يعتقد أن الآنسة إميلي كانت واقعة تحت تأثير سيئ وهي تحرّر وصيتها الجديدة، أما زوجته فليست مع هذا الرأي، فلما حضر زوجها شاطرته رأيه، وفي البداية كانت تأبى اتخاذ أي إجراء لإلغاء الوصية ثم بعد ذلك تحمّست لإلغائها.

ثم التفت بوارو إليّ قائلاً: كل تلك الوقائع تكشف عن أنه يوجد شيء خفي كامن تحت السطح يا هيستنغز.

أثّرت فيّ كلماته فقلت مؤمّناً: يبدو أنك على حق، ولكن الموقف ما زال متّسماً بالغموض.

فقال بوارو: يبدو أنك عدلت عن رأيك القديم يا صديقي وأصبحت الآن ترى أن في المسألة شيئاً، فما الذي جعلك تعدِل عن رأيك؟

فأجبت قائلاً: أعتقد بأن السيدة تانوا هي السبب، فقد بدت لي خائفة.

فتساءل بوارو قائلاً: خائفة منّي؟

- لا، لم تكن خائفة منك أنت بل من شيء آخَر، ففي البداية كانت تنبذ فكرة إلغاء الوصية رغم نقمتها عليها وفجأة انحازت متحمّسة إلى الرأي المضاد. أرأيت كيف هُرعت إلينا في بهو الفندق والخوف في عينيها؟

فقال بوارو: ويوجد شيء آخَر لعلك لم تفطن إليه، أعني

زيارة زوجها لفيلاّ ليتل غرين وحده دون أن يصحبها يوم الأحد السابق للوفاة. لقد كتم عنها الأمر، ولكنه حين قال إنه أخبرها سايرته في رأيه مُكرَهة.

فقلت: وكان الخوف بادياً على قسمات وجهها.

ثم استطردت فقلت متسائلاً: بوارو، هل تعتقد أن للدكتور تانوا يداً في وفاة...

فقاطعني بوارو بحدّة قائلاً: تريّث ولا تقفز إلى استخلاص النتائج يا صديقي، يجب أن تطرح مشاعرك جانباً ولا تركن إلا إلى الحقائق وحدها.

فتساءلت قائلاً: ولكن ما هي الحقائق لدينا؟

فصمت بوارو هنيهة ثم قال: الحقيقة الأولى هي أنه توجد محاولة قتل، هذا أمر لا خلاف عليه بيننا.

فأجبت أقول مؤمّناً: هذا صحيح، أنا أقرّك على سلامة منطقك الآن.

- هذا جميل، إذن اتفقنا على أنه توجد محاولة قتل، أي أنه يوجد قاتل مجهول.

- هذا لا شكّ فيه.

ثم تابع بوارو سرد الوقائع قائلاً: وتلت ذلك عباراتٌ مختلفة تردّدت إما عرَضاً أو عن عمد، فالآنسة لاوسون تقول إن شارل هدّد عمّته بإزاحتها من الطريق، أي بالقتل، ومن المحتمل أنها أشارت إلى ذلك ببراءة أو عامدة عن نية خبيثة. وكذلك ما جاء

على لسان الدكتور تانوا عن تريزا، فربما صدرت منه بلا غرض شرير، ثم حديث الآنسة بيبودي عن شارل أراندل.

فسألته قائلاً: الذي يهمّني في كل هذا هو رأيك أنت يا بوارو.

- أنا لم أكوّن لي رأياً بعد؛ فما زلت أفكّر.

ثم استطرد قائلاً: ثم ننتقل بعد هذا إلى الدوافع، أي الدوافع إلى القتل. مَن الذي ينتفع من موت الآنسة أراندل؟ ثم استطرد يقول محلّلاً الوقائع: قبل إلغاء الوصية الأولى كان الجميع ينتفعون من موتها عدا الآنسة لاوسون.

فقلت: أي أن جميع أقاربها مشتبَه بهم بمن فيهم الدكتور تانوا، وذلك مع استبعاد الآنسة لاوسون.

فقال بوارو: تماماً، أي أن أحدهم هو الذي شدّ الخيط على رأس الدرَج ليقتل الآنسة أراندل. وبعد تحرير الوصية الثانية أصبحت الآنسة لاوسون هي وحدها المنتفعة، أي أن الشبهة انزاحت عن الأقارب جميعاً.

ثم أخذ نفساً عميقاً واستطرد قائلاً: وبعد وقوع الآنسة أراندل على الدرج نُقلت إلى فراشها فاتّسع أمامها الوقت للتفكير، فماذا فعلت بعد ذلك؟ كتبت إليّ خطاباً (وإن لم يُودع البريد)، وعقب ذلك استدعت محاميها وحرّرت وصية جديدة.

- هذا صحيح، وماذا بعد؟

- حدث في خلال ذلك شيء أشارت إليه إيلين، قالت إن الآنسة لاوسون كانت حريصة أشدّ الحرص على أن لا تعرف الآنسة

أراندل أن الكلب بوب بات ليلة الحادث خارج البيت.

فتساءلت قائلاً: ألهذه الواقعة شيء من الأهمية؟

- بل إن لها أهمية كبرى. وبعد هذا توالت وقائع أخرى، فقد حضر شارل وتريزا لزيارة عمّتهما في عطلة الأسبوع، ثم أطلعت الآنسة أراندل ابنَ أخيها شارل على الوصية الجديدة... أو هذا هو ما ذكره لنا على الأقل.

- ألا تصدقه في هذا؟

- أنا لا أصدّق إلا الوقائع التي ثبت صحتها، ولكن العمة إميلي لم تُطلع تريزا على الوصية، ويقول شارل في هذا إنه أفضى إلى أخته بأمر الوصية الجديدة وإن كانت تريزا تنكر أنه فعل، وعند انصرافنا سمعناها تنعته بغضب بأنه أحمق مجنون.

وبعد بُرهة صمت قصيرة عاد بوارو يقول: وفي يوم الأحد حضر الدكتور تانوا وحده دون زوجته لزيارة الآنسة أراندل، كما أنه كتم أمر تلك الزيارة عن زوجته. وفي يوم الإثنين حضرت الأختان تريب لزيارة الآنسة أراندل وعقدتا جلسة لاستحضار الأرواح، ثم تناولتا العشاء في الظلام ومعهن الآنسة لاوسون وفجأة أُصيبت الآنسة أراندل بالمرض وماتت بعد أربعة أيام.

فقلت: وكانت ميتة طبيعية طبقاً لما قرّره الدكتور غرينغر.

ولكن بوارو استطرد دون أن يحفل بمقاطعتي قائلاً: لقد أشارت إحدى الأختين تريب في حديثها إلى أن الآنسة أراندل تناولت في عشائها حساء بالكاري، ولا شكّ أنك تعلم أن الكاري حادّ المذاق ويمكن أن يخفي مذاق السمّ إذا خُلط به.

- هل تريد أن تقول إن الأختين تريب...

فقاطعني بوارو: أنا لم أقُل هذا، كما أن الأختين بريئتان من تُهمة القتل. والآن، هل يوجد مَن حاول قتلها في أثناء فترة سريان الوصية الأولى، وهل هو نفسه مَن قتلها بعد إلغائها؟

فران علينا الصمت برهة ثم قال بوارو: هيستنغز، أنا أخشى أن تقع جريمة قتل أخرى! إن القاتل هادئ ساكن كالحية النائمة الآن، ولكن إذا أثارته تحرّياتنا فقد يتحرّك ليقتل. أنا أخشى أن توجد ضحية أخرى في طيّات الأفق.

* * *

الفصل التاسع عشر

ملت إلى هيركيول بوارو وقلت متسائلاً: والآن إلى أين ستمضي لإجراء المزيد من التحرّيات؟

- إلى مقابلة المحامي السيد بيرفيس. ولكننا سنمضي أولاً إلى مسكني؛ فقد اتصلت هاتفياً بالآنسة تريزا أراندل ونحن في فندق دورهام وطلبت منها أن تبعث إلى بيتي مع أحد الخدم بخطاب تزكية إلى المحامي حتى لا يضنّ عليّ بمعلوماته.

وجدنا أن شارل أراندل هو نفسه الذي جاء بالخطاب المنشود، وابتدرنا بقوله: لقد جئت بالخطاب منذ ربع ساعة ولبثت في انتظاركما حتى تحضرا.

ولمحت أحد أدراج المكتب مفتوحاً قليلاً فلم يغِب عنّي أن شارل هو الذي عبث به دون شكّ؛ فقد كان بوارو من الدقّة بحيث لا يمكن أن يدع أدراجه موارَبة. ثم قال شارل: أرجو أن يحالفك التوفيق مع بيرفيس فيُدلي إليك برأيه بالطريقة المثلى التي يتسنى لنا بها إلغاء الوصية.

فسأله بوارو قائلاً: ألم تحاول أن تتصل بالآنسة لاوسون لتقنعها بأن تمنحك أنت وأختك جزءاً من الثروة التي آلت إليها؟

- بلى، حاولت وفشلت. لقد أخفقت جاذبيّتي المعهودة في أن أظفر بشيء من عطفها! لا شكّ في أنها محصّنة ضد جاذبية الرجال!

فعاد بوارو يسأله قائلاً: بالمناسبة، هل صحيح أنك هدّدت عمّتك بأن تزيحها من الطريق عندما رفضت أن تعطيك بعض المال؟

فقال شارل بمرح واستخفاف: يا لك من داهية يا سيد بوارو! ليت شعري كيف وقعت على هذه القصة؟

- إذن فالأمر حقيقي، هلاّ حدّثتني بما جرى بينكما.

فأجاب قائلاً: سأصارحك بما كان بيننا. لقد سألتها قرضاً فأبت فألححت فأصرّت على الرفض، فقلت لها: اسمعي يا عمّتي إميلي، إن أسلوبك هذا في معاملة الأسرة سينتهي بك إلى إزاحتك من الطريق في آخر الأمر. فقالت بخشونة: ماذا تعني يا شارل؟ فأجبت قائلاً: إن جميع أقاربك وأصدقائك الذين يلتفّون بك في فقر مدقع وهم ينظرون إليك بأمل ورجاء طامعين فيك، ولكنك تضنّين عليهم بما يسدّ عوزهم، وهذه هي الطريقة التي يعرّض الناس بها أنفسهم للقتل، فإذا أزاحك أحدهم من الطريق فلا تلومي إلا نفسك.

فسأله بوارو قائلاً: وكيف كان ردّ الفعل على نفسها؟

فأجابه شارل قائلاً: نظرت إليّ برهة وهي صامتة ثم قالت بجفاء: أهذا هو رأيك يا شارل؟ فأجبت قائلاً: نعم، هذا هو رأيي، ونصيحتي إليك أن تبذلي لمن حولك شيئاً من مالك. فقالت: شكراً لك على هذه النصيحة يا شارل، ولكن ثِق أنني أعرف كيف أحمي

نفسي وأحافظ على حياتي. فقلت: ليس لك أن تثقي بنفسك إلى هذا الحد، وحسبي أنني حذرتك.

فقال بوارو: إذن هذا هو كل تهديدك لها بالقتل؟ وبعد ذلك أبحت لنفسك أن تختلس من دُرجها خمسة جنيهات وثلاثة شلنات، أليس كذلك؟

فحملق إليه شارل مرّة أخرى وهو يقول: يا إلهي! لقد كنت في غاية الإفلاس فخطر لي أن هذا المبلغ التافه لن يؤثّر في ثروة عمّتي. ولكن تأكّد أنني لست لصاً؛ فقد كان في الدُّرج أكثر من مئة جنيه.

وصمت بُرهة ثم استطرد الحديث متسائلاً بإلحاح قائلاً: ولكن مَن الذي أنبأك بهذا؟ لقد اعتقدت بأن الشبهة سوف تتّجه إلى الخدم.

فأجاب بوارو قائلاً: الآنسة لاوسون هي التي أخبرتني، كما أنها هي التي أنبأتني بأنك هدّدت عمّتك بالقتل.

- يا لتلك المرأة من شيطانة خبيثة! إنها تكره تريزا وتكرهني أشدّ الكره.

فسأله بوارو قائلاً: هل عرفت أن الدكتور تانوا زار عمّتك يوم الأحد السابق لوفاتها؟

- يوم الأحد؟ لقد كنت أنا وتريزا في زيارتها ولكننا لم نعرف أنه حضر لمقابلتها. لا شكّ في أنه جاء بعد الظهر حين خرجت مع تريزا نتجول في القرية.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: تانوا رجل لطيف المعشر وقد

ابتُلي بزوجة لا تُحتمَل. لو أنني كنت مكانه لخنقتها ليلة الزفاف، ولكنني أعرف أنه رجل دمث الخلق رقيق المشاعر لا يمكن أن يُقدِم على إيذاء ذبابة.

فقال له بوارو: وماذا عنك أنت؟ أتُراك لا تحجم عن القتل؟

فضحك شارل بمرح واستخفاف وأجاب قائلاً: القتل؟ لا، يا سيد بوارو؛ أنا رجل لا أقترف إلا الجرائم الخفيفة. قد أقوم بالنصب أو التزوير، وقد أختلس مبالغ ضئيلة، أما القتل فلا. يا عزيزي بوارو، يجب أن تكون على يقين من أنني لم أدسّ...

وأمسك برهة عن إتمام عبارته ثم استطرد قائلاً: لم أدسّ الإستركنين في حساء عمتي.

ثم نهض واقفاً ولوح لنا بيده وانصرف، فقلت لبوارو أسأله بعد انصراف شارل: هل أردت بهذه الأسئلة أن تُرهبه وتثير في نفسه الفزع؟

فأجاب قائلاً: ولكنه لم يتأثّر وكان ردّ الفعل سلبياً!

ثم استطرد بوارو قائلاً: ولكن هل فطنت إلى تلك السكتة القصيرة التي سبقت نطقه لكلمة الإستركنين؟ فكيف تعلّل تلك السكتة الفجائية يا هيستنغز؟

فأجبته قائلاً: لا أدري! فكيف تعلّلها أنت؟

فأجابني بوارو قائلاً: لعله أراد أن ينطق بكلمة أخرى، ثم رأى أن من الحكمة أن لا يذكر السمّ الآخر.

* * *

ألقى المحامي بيرفيس نظرة سريعة على خطاب التوصية الذي زوّدتنا به تريزا أراندل، ثم رحّب ببوارو بمودة وأشار إلى أنه يعرف ما له من شهرة في ميدان العمل البوليسي، كما أبدى استعداداً تاماً للإجابة على جميع أسئلة الشرطي الشهير.

سأله بوارو عمّا كان بشأن الوصية الجديدة وكيف نشأت فكرتها، فنظر بيرفيس في أوراق أمامه ثم أجاب قائلاً: لقد كتبت لي الآنسة إميلي لاوسون في السابع عشر من شهر نيسان (أبريل) طالبة منّي أن أُحرّر وصية جديدة خصّصت فيها مبلغين لاثنين من خدمها ومبالغ أخرى لبعض الأعمال الخيرية، أما باقي التركة فقد أوصت بها للآنسة ويلهيلمينا لاوسون.

- وطبعاً كانت توجد وصية سابقة.

- أجل، فمنذ خمس سنوات حرّرت لها وصية أخرى وزّعت فيها ثروتها على أبناء أخيها وأختها، بالإضافة إلى مبالغ أخرى نقدية لبعض الخدم.

- وماذا كان مصير تلك الوصية بعد كتابة الوصية الجديدة؟

- لقد أحضرتها معي بناء على طلبها عند زيارتي لها يوم الحادي والعشرين من شهر نيسان (أبريل).

- هل لك أن تصف لي ما حدث في أثناء تلك الزيارة بالتفصيل؟

تريّث المحامي بُرهة مفكراً ثم أجاب قائلاً: وصلت إلى الفيلاّ في نحو الثالثة بعد الظهر وبصحبتي أحد الكَتبة، واستقبلتنا الآنسة أراندل في قاعة الاستقبال.

- وكيف كانت حالتها الصحية؟

- على خير ما يكون، وقد فهمت منها أن قدمها انزلقت على الدرَج وهي هابطة، وكانت تتوكأ على عصا، وقد بدت لي مضطربة قليلاً وكانت تصرّفاتها متّسمة بالانفعال.

- هل كانت الآنسة لاوسون حاضرة ذلك الاجتماع؟

- كانت معها عند دخولي، ولكنها ما لبثت أن انصرفت وتركتنا منفردَين.

ثم استطرد المحامي بيرفيس الحديث قائلاً: ثم قدّمت إليها الوصية الجديدة فقرأتها، وسألتني قلماً لتذيّلها بتوقيعها، ولكنني رأيت أن أصارحها برأيي فقلت لها إن تلك الوصية الجديدة تنطوي على ظُلم صارخ ضدّ أسرتها.

- وماذا كان ردّها يا ترى؟

- قالت إن المال مالها وإن لها كامل الحرية في أن تتصرّف فيه طبقاً لمشيئتها، فعُدت أقول لها إن الآنسة لاوسون لم تقضِ في خدمتها إلا زمناً قصيراً وإنه ليس من الإنصاف أن تتخلى عن ورثتها الشرعيين بمثل هذه الصورة الظالمة، فأجابتني بأنها تدرك ما تفعل وأن هذه هي إرادتها.

فسأله بوارو قائلاً: وهل كانت منفعلة وهي تتحدّث إليك؟

- كانت منفعلة، ولكنني أحب أن أؤكّد لك أنها كانت واعية لكل ما تفعل متمالكة قواها، أو بعبارة أخرى قانونية: كانت متمالكة لكامل أهليّة التصرّفات، وأستطيع أن أشهد بهذا في المحكمة.

- هذا مفهوم، وما الذي حدث بعد ذلك؟

- وقّعت الوصية، ثم أودعت الوصية دُرج مكتبها وأغلقته بالمفتاح.

- وماذا عن الوصية القديمة؟ هل مزّقتها؟

- لا، بل أودعتها نفس الدُّرج مع الوصية الجديدة.

- وبعد الوفاة، هل وجدت الوصية في الدُّرج؟

فأجاب بيرفيس قائلاً: نعم، كانت الوصيتان معاً، القديمة والجديدة، في نفس الدُّرج.

فتساءل بوارو قائلاً: هل سألتها عن الدافع إلى تحرير الوصية الجديدة؟

- سألتها، فلم تزِد في ردّها عن أن قالت لي: أنا أعرف ما أفعل.

- وهل أدهشك إقدامها على تحرير الوصية الجديدة يا سيد بيرفيس؟

- نعم، أدهشني الأمر لأن عهدي بها أنها حريصة على الروابط العائلية دائماً.

- وطبعاً لم تعرف الآنسة لاوسون بفحوى الوصية الجديدة، أليس كذلك؟

- أنا شخصياً لا يمكن أن أفضي إليها بشيء عن هذا بحُكم مهنتي، كما أن الآنسة أراندل أكّدت لي أنها لم تصارحها بشيء وأنها لا تنوي أن تحدّثها عن الوصية الجديدة.

وصمت بوارو هنيهة ثم تساءل قائلاً: ولكن كيف نعلّل احتفاظ الآنسة أراندل بالوصيتين معاً، إذ كان المفروض أن تمزّق الوصية القديمة بمجرّد كتابة وصية جديدة؟

فقال المحامي: لقد سألت نفسي هذا السؤال، ومنّيت نفسي بأنها قد تُراجع نفسها في يوم من الأيام فتعدل عن موقفها وتمزّق الوصية الجديدة، ولكن ذلك لم يحدث لأن المنية عاجلتها.

- إذن كنت تتوقّع منها أن تفعل ذلك؟

فأجاب بيرفيس قائلاً: أجل، وهذا مجرّد رأي شخصي، بل لعله كان مجرّد أُمنية دارت بخلدي.

شكره بوارو على المعلومات التي أدلى بها، وغادرنا مكتبه منصرفَين.

* * *

الفصل العشرون

قلت لبوارو ونحن في طريقنا إلى ماركيت بيسنغ: نحن لم نظفر من بيرفيس إلا بالقليل.

- إنه محام ذكي على قدر كبير من الدهاء.

فقلت: ولكننا عرفنا منه أنه لا علم للآنسة لاوسون بفحوى الوصية الجديدة على الأقل.

- وهل نسيت أن الآنسة لاوسون حادة السمع وأنها تجيد التلصّص من ثقوب الأبواب واستراق السمع يا صديقي؟

- إذن أنت تعتقد أن الآنسة لاوسون سمعت الحديث الذي جرى بين الآنسة أراندل ومحاميها.

- أنا لا أعتقد شيئاً حتى الآن، ولكنني أحب أن أذكّرك بأنها سمعت الحديث الذي دار بين شارل وعمّته حين هدّدها بإزاحتها من الطريق، فما الذي يمنع من أن تسمع حديث سيدتها ومحاميها، ولا سيما أن السيد بيرفيس رنّان الصوت؟

* * *

حين ضغطنا جرس الباب في فيلاّ ليتل غرين سمعنا الكلب

بوب وهو يقبل في الردهة راكضاً، ثم سمعناه وهو يخدش الباب بقوائمه بغضب وكأنه يريد أن يصدّ عن حرم سيدته المقدّس كل غريب يريد أن ينتهك حرمته، ثم فتحت لنا إيلين البابَ بعد بُرهة معتذرة عن التأخير بأنها كانت تحبس بوب فقلت لها: يمكنك أن تطلقيه، فهو يعرفنا ويحبّنا.

وجاء بوب مهرولاً وأخذ ينبح بسعادة حين رآنا، ثم أخذ يتمسّح بنا وأنا أداعبه وأربّت على ظهره وأُناجيه بأعذب الكلمات. وذهب بوارو إلى قاعة الجلوس في صحبة إيلين، أما أنا فبقيت في الردهة مع بوب أُلاعبه وأقذف إليه بكرته فيلقفها ويُهرع إليّ كي أرمي بها إليه مرّة أخرى. وبعدما ذهب بوارو إلى قاعة الجلوس في صحبة إيلين وانهمكا في الحديث سمعت إيلين تقول له: نعم يا سيدي، لقد اعتادت أن تتناول حبوباً بيضاء صغيرة، حبّتين أو ثلاثاً بعد كل وجبة، وكانت هذه هي تعليمات الدكتور غرينغر. وكانت تتناول أقراصاً أخرى جاءت بها الآنسة لاوسون ونصحتها بأن تتناولها، وهي أقراص الدكتور لوبارو لعلاج الكبد. لا شكّ أنك سمعت عنها يا سيدي، فالصحف زاخرة بالإعلان عنها.

- وهل رضيَت بأن تتناولها؟

- لقد جرّبتها وقالت إنها استراحت لها.

- ولكن ألم تستشِر الدكتور غرينغر في شأنها؟

- بلى، استشارته يا سيدي، فقال لها: ما دمت قد استرحت إليها فتناوليها، وهي إن لم تفِدك فإنها لن تؤذيك. ثم عقّب على قوله هذا بأن ضحك قائلاً: الاعتقاد في دواء معيّن ولو كان باطلاً هو خير وسيلة للشفاء.

فسألها بوارو قائلاً: وهل كانت تتناول أدوية أخرى؟

- لا، لقد جهّز لها ذلك الطبيب اليوناني، زوج الآنسة بيلا، دواءً بنفسه في الصيدلية. فشكرته ولكنها لم تتناوله، بل أفرغته في البالوعة لأنها لا تثق بهؤلاء الأجانب.

- وهل رأتها السيدة تانوا وهي تفرغ دواء زوجها في البالوعة؟

- هذا لا شكّ فيه.

- وماذا فعلتم بالأدوية المتبقّية بعد وفاة الآنسة أراندل؟

- لقد رمتها الممرّضة المشرفة على علاجها، كما أن الآنسة لاوسون تخلّصت من جميع الأدوية التي كانت موجودة في خزانة الصيدلية في الحمّام.

- ما اسم تلك الممرّضة؟

فذكرت الاسم له على الفور، ثم سألها قائلاً: هل لك أن تصفي لي أعراض المرض الأخير الذي نزل بالآنسة أراندل قبل وفاتها؟

فأخذت إيلين تسرد عليه أعراض المرض قائلة: المغص، واصفرار الوجه والعينين اصفراراً شديداً لاختلال الكبد وإصابته بالصفراء، ثم الهذيان السابق للاحتضار.

فعاد بوارو فسألها عن الأطعمة التي كانت تتناولها ومَن الذي كان يتولى إعدادها، فجاء بوب في أثناء الحديث وأخذ يثب على قدمي، فمضيت به إلى البهو لألاعبه مرّة أخرى. وحين رجعت إلى قاعة الاستقبال كان بوارو يسأل إيلين عن الزيارة الغير المتوقّعة

التي قام بها الدكتور تانوا للبيت يوم الأحد السابق للوفاة، فأجابت قائلة: نعم، كان السيد شارل والآنسة تريزا في القرية حين جاء الدكتور تانوا، وقد دُهشت السيدة لهذه الزيارة المفاجئة ولكنها استقبلته على الفور.

- هل مكث طويلاً؟

- لقد انصرف بعد أقلّ من ساعة.

فسألها قائلاً: ألم تسمعي شيئاً مما دار بينهما من حديث عند تقديمك الشاي إليهما؟

- لقد انصرف الدكتور تانوا قبل موعد تناول الشاي يا سيدي، لذلك لم أدخل عليهما ولم أسمع شيئاً مما دار بينهما.

وبعد بُرهة صمت قصيرة سألها بوارو قائلاً: هل غرفة الآنسة لاوسون مجاورة لغرفة الآنسة أراندل؟

- لا يا سيدي. هل تحب أن تشاهدها؟

رحّب بوارو بهذا الاقتراح وصعد برفقة إيلين إلى الطابق العلوي، وعندما بلغ الدرجة الأخيرة احتكّ بالجدار ثم هتف قائلاً: آه! يبدو أن في الجدار مسماراً علق ببنطالي.

ثم انحنى متظاهراً بأنه يفحص بنطاله، وأشار إلى مسمار بارز في الجدار الخشبي للدرج وهو يقول: آه! هذا هو المسمار.

فقالت إيلين: أصبت يا سيدي، لقد كاد يمزق ثوبي في يوم من الأيام.

فسألها قائلاً: هل هو في مكانه هذا منذ فترة طويلة؟

- أظن ذلك يا سيدي؛ فقد علق بثوبي بعد يوم أو يومين من انزلاق قدم السيدة ووقوعها على الدرج، وكنت أنوي أن أنتزعه ولكنني نسيت.

- أرى خيطاً ملفوفاً حول رأس المسمار!

- تماماً يا سيدي، أذكر أنني رأيت الخيط أنا أيضاً.

وذهبت بنا إيلين إلى غرفة الآنسة لاوسون ثم إلى غرفة الممرّضة، وحين هبطنا إلى الطابق الأرضي استأذن بوارو من إيلين لحظة كي يشاهد الحديقة، فقالت: لك ذلك يا سيدي إن شئت، إن البستاني أنغوس لا يزال قائماً بالعمل هناك وهو يستطيع أن يطوف بك في أرجائها.

* * *

في الحديقة استقبلَنا البستاني العجوز أنغوس بالترحاب وأخذ يحدثنا عن حديقته بإعجاب، فقال له بوارو كاذباً يستدرجه إلى الحديث: يبدو أن السيد شارل مولع بالزهور؛ فقد رأيته وهو يتفقّدها ذات مرة باهتمام.

فاندفع البستاني يقول: أجل، إنه مغرَم بالزهور يا سيدي وكان يسرّه أن يستفسر عن أسمائها دائماً، وقد سألني ذات مرة عن المبيدات الحشرية التي أستعملها لقتل الآفات التي تلتهم الزهور.

فسأله بوارو قائلاً: ومتى كان ذلك؟

- في شهر نيسان (أبريل) الماضي.

- وما هو المبيد الذي تستعمله يا أنغوس.

- أنا أستعمل مبيداً مخلوطاً بالزرنيخ.

فقال بوارو: ولكن ألا يوجد خطر في استعماله؟ أعني خطراً على الإنسان.

فقال أنغوس: هذا هو نفسه ما ردّده السيد شارل حين أطلعته على علبة المبيد، إنه خطير إلا إذا استعمله المرء باحتراس طبعاً.

- هل لديك الآن شيء منه؟

ذهب أنغوس وبعد لحظات جاء بعلبة المبيد، وما إن رفع غطاءها حتى هتف بدهشة واستغراب قائلاً: هذا عجيب! العلبة تكاد تكون فارغة مع أنني كنت أحسبها مملوءة. لا شكّ في أنني أسرفت في استعماله.

وصمت بُرهة ثم قال ضاحكاً: لقد قال لي السيد شارل إنه سوف يستعير مني العلبة عندما يتزوج حين يريد أن يتخلّص من زوجته.

فقال له بوارو ضاحكاً بمرح: إذن أرجو أن تحرص على العلبة؛ فقد أستعيرها منك في يوم من الأيام لأنني أنوي أن أتزوج قريباً!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

فتحت أمامنا علبةُ المبيدات باباً جديداً للافتراضات فقلت: لا شكّ في أن شارل هو الذي استولى على المبيد خُفية عن البستاني.

- لا أظن، وإلا كان أحمق معتوهاً لأن حديثه عن المبيد كفيل بأن يورّطه ويسترعي إليه الشبهات ما دام كان ينوي أن يختلس منه شيئاً.

وصمت بوارو ثم استطرد قائلاً: ومع ذلك يوجد شيء آخر. أتذكر حديثه معي اليوم؟ لقد قال: "أؤكّد لك أنني لم أدس"، وصمت ثم أردف: "الإستركنين في حساء العمّة". فلماذا كانت تلك السكتة الفجائية؟ لقد أراد أن يقول الزرنيخ ثم عدل، فلماذا عدل؟ لماذا تعمّد أن لا ينطق بهذه الكلمة؟ هل لأنه هو الذي اختلس المبيد الذي كان يستعمله البستاني ولأن هذا المبيد مزيج من الزرنيخ ومواد أخرى.

فقلت متسائلاً: أتعني أنه هو الذي قتل عمّته بالمبيد الزرنيخي؟

- أنا لا أعني شيئاً بل أفكر مجرّد تفكير، ولكن عبارته هذه

وتردّده هو الذي جعلني أخرج إلى الحديقة وأسأل البستاني عن نوع المبيد الذي يستعمله، وها نحن قد اكتشفنا أن شارل كان شديد الاهتمام بهذا المبيد الزرنيخي وأن شخصاً ما اختلس من العلبة كمية كبيرة.

فقلت: ولكن ما الذي تستنتجه من هذا يا عزيزي بوارو؟

- ألم أُقل لك إنني لم أستنتج شيئاً حتى الآن؟ إن عملي مقصور على التفكير.

ثم مررنا بإحدى الصيدليات فدخل إليها بوارو واشترى علبة من أقراص الدكتور لوبارو لعلاج الكبد، وأخذ يجاذب الصيدلي الحديث قائلاً: أظن أن الآنسة إميلي أراندل كانت تستعمل هذا الدواء، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ فقد اشترت منّي أكثر من علبة.

- وهل كانت وصيفتها الآنسة لاوسون عميلة عندك؟

- الآنسة لاوسون؟ أتعني السيدة التي آلت إليها تلك الثروة الطائلة؟ لقد كانت من خير عملائي؛ فقد كانت لا تفتأ تبتاع منّي أقراصاً للحلق وأقراصاً للسعال وأقراصاً للزكام.

- وهل تعرف الدكتور تانوا زوج ابنة أخت الآنسة أراندل؟

- أعرفه، إنه ذلك الطبيب اليوناني. لقد زراني ذات مرّة وتولى بنفسه تركيب دواء للآنسة أراندل، والحق أنه كان دواء جديداً لم أعهده من قبل!

- وهل تعرف زوجته أيضاً.

– السيدة تانوا؟ لقد اشترت مني مرة دواء منوّماً، الكلورال فيما أذكر، وكانت كمية هذا العنصر مضاعفة في السائل. وقد حذّرتها من خطورته، ولكنني ركّبت لها الدواء لأنها كانت تحمل وصفة حرّرها لها زوجها الدكتور تانوا، وإن كنت أعتقد أنه أخطأ في تحديد النِّسَب الملائمة.

وحين غادرنا الصيدلية قلت لبوارو: إذن فقد اشترت الآنسة تانوا دواء منوماً مضاعف المقدار؟

فقال بوارو معقّباً: ومضاعفة الكمية كفيلة بقتل الإنسان.

– ولكن ما هدفها من وراء ذلك؟ أو بعبارة أخرى: ما هدف الدكتور تانوا من وراء مضاعفة الكمية لزوجته؟ أتراه يريد أن يقتلها؟

فقال بوارو معترضاً: وهل يبلغ الجنون بإنسان أن يقدّم الدليل ضد نفسه بأن يحرّر بيده وصفة الدواء القاتل؟!

فصمت مخذولاً لأن منطق بوارو كان أقوى من استنتاجاتي. ثم عرجنا في طريقنا على المستشفى لنقابل الممرّضة كارثا التي أشرفت على الآنسة أراندل في أثناء مرض الموت، وفي تلك المرة انتحل بوارو لنفسه شخصية أخرى، فزعم أن له عمة مريضة وأنه بحاجة إلى مَن يرعاها وأنها صعبة المراس لم تتحمّل الممرضات الشابات اللاتي يفرضن عليها أوامرهن، فتعاطفت معه الآنسة كارثا، ثم أشار بوارو إلى أنه سمع عنها ثناء مستطاباً ولا سيما ممّن عرفوها وهي تمرّض الآنسة أراندل.

واستمرّ الحديث على هذا النحو، ثم تطرّق إلى الوصية التي تركتها الآنسة أراندل، فقالت الآنسة كارثا: لا شكّ في أن الوصية

كانت صدمة أليمة لأفراد الأسرة.

فأمّن بوارو على قولها ثم أردف قائلاً: وكانت صدمة شديدة الوقع على الآنسة تريزا أراندل على الأخص.

فقالت الممرّضة: لا شك في هذا، وقد علمت أن الوصية أثارت الكثير من القيل والقال.

فسألها بوارو قائلاً: ألم تحدّثك الآنسة أراندل عمّا حفزها إلى تعديل الوصية القديمة؟

- لم تحدّثني عن شيء من هذا إطلاقاً.

- وهل تحدّثت في الأمر مع سواك؟

-هذا ما يُخيل إليّ، فقد سمعت الآنسة لاوسون تقول لها: "لا يا عزيزتي، إنها موجودة عند المحامي"، ثم سمعت الآنسة أراندل تردّ عليها قائلة: "أنا متأكّدة من أنني وضعتها في دُرج المكتب"، ولكن الآنسة لاوسون أجابتها قائلة: "لا، لقد أعطيتِها للمحامي، ولكن لعلك قد نسيت". وعند ذلك أُصيبت مريضتي بغيبوبة وانصرفت الآنسة لاوسون إلى شأنها، واستقرّ في ذهني أنهما كانتا تتحدّثان عن الوصية.

فأمّن بوارو على قولها قائلاً: هذا محتمل جداً.

ثم استطردت الآنسة كارثا قائلة: واستنتجت من هذا أن الآنسة أراندل كانت تنوي تعديل الوصية أو تمزيقها، ولكن المسكينة كانت على حال من الإعياء لا تملك معه من أمر نفسها شيئاً.

فسألها بوارو قائلاً: هل كانت الآنسة لاوسون تشترك معك في تمريض الآنسة أراندل؟

- لا، إطلاقاً، وإن كانت لا تنفكّ تروح وتغدو حولنا دون أن تأتي بعمل.

- وماذا عن إيلين؟ هل كانت تساعدك في تمريضها؟

- هي التي كانت ترتب الفراش وتقوم بتهوية الغرفة.

- هل كانت الآنسة لاوسون هي التي تُعدّ لها الطعام؟

- لا، الواقع أنه لم يكن يوجد ما يدعو إلى إعداد أي نوع من الطعام؛ فقد كانت تتغذى على اللبن المحفوظ وأنا التي كنت أعده لها بنفسي.

وساد الصمت برهة، ثم سألها بوارو فجأة: ألم تتحدث الآنسة أراندل في أثناء مرضها عن كلبها المدلّل بوب؟

فقالت: غريب منك أن تشير إلى هذا! ففي أثناء هذيان الاحتضار تحدّثت عن الكلب كثيراً، قالت كلاماً غير مفهوم عن كرة الكلب وسقوطها على الدرج. مسكين! لا شكّ في أنه حزن كثيراً لموت سيدته فقد كان شديد التعلق بها.

وعند هذا الموضع من الحديث انصرفنا من زيارة الآنسة كارثا.

* * *

في تلك الليلة تناولنا العشاء كعادتنا في مطعم جورج، وما إن فرغنا منه حتى سمعنا صوتاً متهدّجاً ثائراً يسأل بانفعال عما إذا كان السيد هيركيول بوارو موجوداً، ثم أقبل السائل علينا بخطوات مهرولة، فإذا به الدكتور غرينغر يُقبل على بوارو وهو يقول بغضب:

آه، أهذا أنت؟ لماذا خدعتني وهزأت بي يا سيد بوارو؟! لماذا سُقت إليّ حفنة من الأكاذيب وأتيت لزيارتي بحجة أنك بسبيل وضع كتاب عن الجنرال أراندل والحقيقة أنك شرطي سري؟

كان الدكتور غرينغر ثائراً يتكلم بغضب، فسأله بوارو بهدوء قائلاً: ولكن كيف اكتشفت شخصيتي الحقيقية؟

- الآنسة بيبودي هي التي كشفتها لي.

فقال بوارو باستغراب ودهشة: الآنسة بيبودي؟! إذن فقد كشف سري منذ اللحظة الأولى!

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: يا دكتور غرينغر، اسمح لي أن أشرح لك...

فقاطعه بهياج وغضب قائلاً: تشرح لي؟! وماذا تريد أن تشرح؟ أنا أريد أن أعرف لماذا هزأت بي؟ لماذا سخرت منّي؟ ما الذي جعلك تكذب عليّ؟

وبعد محاورات ومناورات استطاع بوارو أن يجعل الدكتور غرينغر يتّخذ مجلسه بجانبنا وأن يجعله ينصت إلى تفسيره للأكذوبة التي ألقى بها إليه. قال بوارو باقتضاب ولكن بنبرة حاسمة: تفسير أكذوبتي بسيط يا دكتور غرينغر، فسقوط الآنسة أراندل على الدرج لم يكن مجرّد قضاء وقدر بل كان محاولة قتل.

فغر الدكتور غرينغر فاه دهشة وهتف متسائلاً: ماذا تقول؟ محاولة قتل؟! ولكنها لم تفصح أمامي بكلمة واحدة عن هذا!

- لأن القاتل أحد أفراد أسرتها وهي شديدة الحرص على الروابط العائلية.

فتساءل الدكتور غرينغر قائلاً: ولكن كيف أقحمت نفسك في هذا الموضوع؟

- الآنسة أراندل كتبت إليّ تستشيرني، ولكن من المؤسف أن الخطاب لم يُودَع في البريد إلا بعد وفاتها.

ثم استطرد بوارو يحدثه بإيجاز عن تفصيلات القصة وعن المسمار الذي وجده مثبّتاً في جدار الدرج والخيط الذي كان معقوداً فيه ومشدوداً في السياج عبر الدرجة العليا، فقال الدكتور: وهل عرفت مَن الذي قام بهذه المكيدة الدنيئة؟

- ليس لديّ دليل حتى الآن، ولكن لدي فكرة مؤكّدة.

وصمت بوارو بُرهة ثم استطرد قائلاً: وقد تداعت الأحداث منطقياً في ذهني بعد ذلك، فإذا كان يوجد مَن حاول قتلها وفشل فإن من المتوقّع أن يقوم بمحاولة أخرى، وإذا كانت كل الظواهر تؤيّد أن الآنسة أراندل ماتت ميتة طبيعية فما يدرينا أن القاتل الذي فشل في المرّة الأولى لم يَقُم بمحاولة أخرى نجح فيها وأن موتها لم يكن طبيعياً؟

فقال الدكتور غرينغر معترضاً وفي صوته نبرة من الغضب: ماذا تعني؟! أنا طبيبها الخاص، وأؤكّد لك أن ميتتها كانت طبيعية.

فقال بوارو مسترسلاً: توجد حالات معيّنة من التسمم تبدو أعراضها مشابهة للنزلات المعويّة الحادة، وأعني بذلك التسمّم بالزرنيخ؛ فقد يصحبه قيء ومغص شديد وتقلّصات حادة، وهذه الأعراض تثير الاشتباه، أما إذا لم تظهر هذه الأعراض فقد يظنّ الشخص أنه مُصاب بنزلة معوية، فما رأيك؟

فأجاب الدكتور غرينغر بقوله: إن الأعراض التي ظهرت على الآنسة أراندل كانت خالية من القيء والمغص والتقلّصات ولم يصحبها شيء من الشلل الجزئي، ولذلك كنت متأكداً من أن موتها طبيعي.

- ولكنك لا تنفي أن الأعراض التي عانتها يمكن أن تكون ناشئة عن التسمم بالزرنيخ، أليس كذلك؟

- طبّياً لا أستطيع أن أنفي هذا، ولكن معرفتي بحالتها العامة وإشرافي المتّصل على علاجها يجعلني أؤكّد أن ميتتها كانت طبيعية. لقد كانت مريضة بالصفراء.

وحين انصرف الدكتور غرينغر قلت لبوارو: وماذا بعد؟ أما زلت متشبّثاً برأيك بأن الآنسة أراندل ماتت مسمومة؟

فأجاب قائلاً: أنا واثق ممّا أقول.

فقلت بعناد وإصرار متحدّياً بوارو: ولكن ها أنت ذا ترى أن الجميع ضدك، الصيدلي والممرضة، وأخيراً الدكتور غرينغر.

فقال بوارو بيقين وإيمان: هذا لأنني أعلم، أمّا هم فلا يعلمون.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

في صباح اليوم التالي جاءتنا رسالة حملها إلينا رسول خاص من الآنسة لاوسون، وقد ذكرت الآنسة لاوسون في رسالتها أنها علمت من إيلين أن بوارو زار فيلاّ ليتل غرين في اليوم السابق ثم سألته أن يتفضّل بزيارتها هناك، فسألت بوارو قائلاً: تُرى ما الذي دعا الآنسة لاوسون إلى ترك لندن والحضور إلى الفيلاّ للإقامة فيها؟

فأجابني بقوله باسماً: إذن أنت تعتقد بأنها جاءت لسبب شرير، أليس كذلك؟

فقلت: مشكلتنا أننا لا زلنا في حيرة لا نعرف شيئاً يا بوارو، فأية حركة يأتيها إنسان يمكن أن نفسرها على أشرّ الوجوه.

فقال بوارو باستخفاف وازدراء كي يثيرني: لعل هذه مشكلتك أنت وحدك يا هيستنغز، أما أنا فأشكّ في شخص واحد دون الجميع.

- ومَن يكون ذلك الشخص؟

- بما أن المسألة لا تعدو مرحلة الاشتباه فلندع الأمر دون إفصاح.

فقلت كي أثيره: هب أن القاتل عرف أنك اكتشفت سره، فهل خطر لك أنه قد يتربص بك محاولاً أن يقتلك؟ وفي هذه الحالة تموت وسرّك في قلبك، فلِمَ لا تصارحني بالاسم الذي تشتبه فيه؟

فقال ضاحكاً: كن مطمئناً يا عزيزي هيستنغز، فمنذ اليوم سأرتدي درعاً يقيني الرصاص!

- وماذا عن القتل بالسمّ؟ كيف تتوقاه؟

- ألست صديقي ويهمّك أن لا أُقتل؟

فقلت أداعبه: وأنت عدوي ويهمّك أن أُقتل.

* * *

بعد أن فرغنا من تناول الإفطار بعث بوارو إلى الآنسة لاوسون بكلمة يخبرها بأنه سيزورها في الساعة الحادية عشرة من نفس اليوم. ثم غادرنا الفندق وأخذنا نتجول في القرية قليلاً، وبينما نحن واقفان أمام واجهة متجر للتحف إذا بالآنسة بيبودي تظهر أمامنا فجأة، ولكزت بوارو في جنبه بطرف مظلتها وقالت له ضاحكة: تُرى هل فرغت من وضع كتابك عن حياة الجنرال أراندل؟!

فتأمّلها بوارو بُرهة ثم سألها قائلاً: كيف اكتشفت شخصيتي الحقيقية يا آنسة بيبودي؟

فقالت: تُرى ماذا حسبتني؟! هل حسبتني امرأة عجوزاً بلهاء؟ إن حيلتك لم تجُز عليّ يا سيد بوارو، فمذ وقع بصري عليك عرفتك على الفور، فلا أحد يمكن أن ينسى هذا الوجه ذا الشارب الكبير المفتول.

ثم أطلقت ضحكة رنّانة وقالت: أولى بك أن تحلقه يا عزيزي لأنه كفيل بأن يكشف شخصيتك.

فأجاب قائلاً: أنا أفضّل أن أكون شخصاً فريداً من نوعه يا سيدتي.

وصمتت بُرهة ثم قالت باهتمام: والآن انفض إليّ صدرك وحدّثني بالأمر كله. لقد زرتني وألقيت عليّ عشرات الأسئلة بحجة أنك تضع كتاباً عن الجنرال أراندل، والآن حان دوري كي أسأل؛ فهيا حدّثني بما كان: هل ماتت الآنسة أراندل مقتولة؟ ومَن الذي قتلها؟

فقال لها بوارو باسماً: هل هذا موضوع يناقَش على قارعة الطريق؟

فقالت الآنسة بيبودي ضاحكة: هذا تهرّب لبق من الإجابة. ثم استطردت: هل القاتلة هي تريزا؟ مَن يدري؟ لعلها ورثت الولع بالقتل عن أمها التي دسّت السمّ لزوجها.

ثم تابعت الحديث قائلة: أم أن القاتل هو الدكتور تانوا؟ إنه رجل لطيف، ولكن ما يدرينا ما الذي ينطوي تحت رقّته ودماثته؟

فقال بوارو معقّباً: إن لك عقلية الشرطي السري ومنطقه يا آنسة بيبودي.

فعادت تسأله قائلة: بالمناسبة، هل قابلت الدكتور غرينغر؟

- نعم، منذ ساعة أو ساعتين.

- وكيف تلقّيت ثورته الهائجة؟

- شرحت له الأمر فاقتنع.

- هذا لأن الرجال بُلهاء يسهل خداعهم.

ثم مدّت إلينا يدها تصافحنا وهي تقول: يبدو أنني لن أظفر منك بشيء يا رجل.

ثم انطلقت تتعقّبها ضحكتها المعهودة الرنّانة. وبعد ذلك ذهبنا إلى فيلاّ ليتل غرين، وقد فتحت لنا إيلين البابَ مرحّبة وقادتنا إلى قاعة الاستقبال، ثم أقبلت علينا الآنسة لاوسون شعثاء الشعر يكسو الغبار ثوبها وقالت معتذرة: أرجو المعذرة عن سوء مظهري؛ فقد جئت إلى الفيلاّ لأفحص ما فيها من أثاث وأوراق، ومنذ الصباح الباكر وأنا أعمل بلا هوادة لأنني مولعة بالعمل.

فقال بوارو: ولكن تستطيعين أن تنفضي عنك مهام العمل لأنك أصبحت ثرية، اخلدي إلى الراحة واقضي وقتك بالرحلات.

- هذا ما أتمنّاه. نعم، هذا ما أتمناه، ولكن يجب أن أنسّق البيت أولاً لأنه مليء بمئات الأشياء الصغيرة المنسيّة. لقد كان من دأب الآنسة أراندل أن تشتري عشرات الأشياء وتودعها مكاناً ما ثم تنسى أين وضعتها.

فقال بوارو: إذن فضعف ذاكرة الآنسة أراندل هو السبب في أن خطابها لم يصل إليّ إلا بعد وفاتها بشهرين؟

فقال الآنسة لاوسون باستغراب وقد اتّسعت عيناها دهشة: خطاب من الآنسة أراندل؟! عن أي خطاب تتحدّث؟ أتريد أن تقول إن الآنسة أراندل كتبت إليك خطاباً لم يصلك إلا بعد وفاتها بشهرين؟ ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا؟!

فحدّثها بوارو بما كان من أمر الخطاب الذي كتبته إليه الآنسة أراندل قُبيل وفاتها، وكيف أنها نسيت أن تودعه البريد ثم عثرت عليه إيلين فبعثت به إليه، فحملقت الآنسة لاوسون إلى بوارو وقد تضرّج وجهها احمراراً ثم صرخت بغضب قائلة: إيلين فعلت هذا؟ إيلين أرسلت إليك الخطاب دون أمر منّي؟! هذه وقاحة منها. هل نسيت أنني سيدة البيت؟

فقال بوارو يعتذر عن الخادمة المسكينة: لقد فعلت هذا بحُسن نية.

- حسن نية؟ هذا سوء أدب منها، هذه وقاحة. يجب أن أحاسبها على فعلها.

وحاول بوارو أن يدافع عن الفتاة ولكن دون جدوى، فقد استمرّت الآنسة لاوسون تقول: أنا سيدة البيت، كل شيء في البيت آل إليّ وكان يجب أن تخبرني بالأمر... هذه وقاحة.

وبعد أن هدأت ثائرتها سألها بوارو قائلاً: لقد كتبتِ إليّ تسألينني أن أزورك، فأية خدمة أستطيع أن أقوم بها لأجلك؟

فقالت بشيء من الارتباك والتردّد: لقد حضرت إلى الفيلاّ بالأمس وعرفت من إيلين أنك زرت البيت، ولكنك لم تخبرني بنيتك، فهل يمكن أن... هل يمكن...

وأمسكت عن الحديث مرتبكة، فقال بوارو يفصح عمّا يدور في نفسها: أنت تريدين أن تعرفي السبب الذي حدا بي إلى زيارة الفيلاّ، أليس كذلك؟

- بلى يا سيد بوارو، وإن كنت آسفة لتوجيه هذا السؤال.

فأجابها بوارو قائلاً: أرجو أن تصفحي عن خدعة صغيرة أوقعتك فيها يا آنسة لاوسون، فعندما تقابلنا أول مرّة قلت لك إنني تلقّيت خطاباً من الآنسة أراندل فبادرت أنت على الفور تقولين إن الخطاب كان بشأن السرقة التي وقعت في البيت، أي بشأن تلك الجنيهات القليلة التي اختلسها السيد شارل من دُرج المكتب. ولم أحاول أنا أن أنفي ذلك، فاعتقدتِ أن تلك السرقة هي سبب قدومي، أليس كذلك؟

- بلى، هذا هو ما اعتقدت.

- ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فأنا لم أسمع بتلك السرقة إلا منك أنت. لقد كتبَت إليّ الآنسة أراندل بشأن الحادث الذي وقع لها.

- الحادث الذي وقعه لها؟! أي حادث؟

- حادث سقوطها من أعلى الدرَج.

فقالت الآنسة لاوسون باستغراب ودهشة: ولكن ما الذي دفعها إلى الكتابة إليك عن ذلك الحادث؟! أنت شرطي سري ولست طبيباً!

- هذا صحيح، ولهذا كتبت إليّ لأن مهنتي هي الكشف عن جرائم القتل.

- جرائم القتل؟! بالله عليك ما الذي تعنيه يا سيد بوارو؟

- أنتم جميعاً تعتقدون أن الآنسة أراندل داست على كرة الكلب بوب فانزلقت قدمها واختلّ توازنها فسقطت من أعلى الدرج، ولكن الحقيقة غير ذلك لأنه يوجد سبب آخر لوقوعها.

- كيف هذا؟ لقد رأيت بنفسي الكرة في أعلى الدرج!

فقال بوارو: أنا لا أُنكر هذا، كانت الكرة في أعلى الدرج فعلاً ولكن الآنسة أراندل لم تدُس عليها. سبب الحادث خيط شُدَّ عبر الدرَجة العليا فتعثّرت به الآنسة أراندل فوقعت.

- ولكن هذا مستحيل! إن الكلب لا يستطيع أن يشدّ خيطاً وأن...

فقاطعها قائلاً: تماماً، إذن فالذي شدّ الخيط إنسان.

فهتفت الآنسة لاوسون بجزع وهي تلوّح بيديها قائلة: يا إلهي! أنا لا أستطيع أن أصدّق هذا، هذا فظيع، فظيع! أتريد أن تقول إن شخصاً ما تعمّد أن يفعل ذلك؟

- أليس الأمر واضحاً لا يحتاج إلى ردّ مني؟

- ولكن الآنسة أراندل كان من الجائز أن يُدقّ عنقها وتموت نتيجة هذا الحادث، هذه كأنها جريمة قتل!

- بل هي جريمة قتل فعلاً. لقد وجدت مسماراً مثبّتاً في جدار الدرج وما زالت بقايا الخيط الذي كان مشدوداً إليه ملفوفة حول رأسه، وكان المسمار مدهوناً باللون البنّي لا يلاحظه أحد، وما زالت رائحة الطلاء ظاهرة تفوح من المسمار.

وفجأة هتفت الآنسة لاوسون بذهول قائلة: يا إلهي! أهي التي فعلت ذلك؟ لقد بدا لي الأمر عجيباً لم أفهم له سبباً عندئذ، أما الآن فقد وضح السبب.

فسألها بوارو قائلاً: عمّن تتحدثين يا آنسة لاوسون؟ هلاّ أفصحت؟

فقالت: في أحد الأيام شممت رائحة الدهان فاستغربت الأمر.

- ومتى حدث ذلك يا آنسة لاوسون؟

ففكّرت بُرهة ثم أجابت قائلة: نعم، في عطلة عيد الفصح عندما كان البيت مزدحماً بأقارب الآنسة أراندل. ولكن دعني أتذكّر أول يوم شممت فيه تلك الرائحة.

وعادت تفكّر مرة أخرى ثم قالت: نعم، نعم، كان ذلك ليلة يوم الإثنين، يوم عطلة المصارف، وكنت راقدة في فراشي ولكنني صحوت فجأة أفكّر فيما إذا كان اللحم الذي اشتريته سيكفي الضيوف أم لا وماذا أفعل إذا رأت الآنسة أراندل أنه غير كافٍ ولا سبيل إلى شراء المزيد منه لأن المتاجر جميعها مغلقة بسببِ العطلة.

وصمتت الآنسة لاوسون بُرهة ثم استطردت قائلة: وبينما أنا أفكّر في هذه المشكلة شممت رائحة نفّاذة، فخُيل إليّ أنها رائحة شيء محروق، ولكنني ما لبثت أن أدركت أنها رائحة طلاء. فدُهشت، ثم جلست في فراشي أحاول أن أشمّ وعند ذلك رأيتها.

فتساءل بوارو: رأيت مَن يا آنسة لاوسون؟

فقالت: إن من عادتي أن أترك باب غرفة نومي موارَباً قليلاً حتى إذا نادتني الآنسة أراندل سمعتها. وفي غرفتي مرآة مواجهة للباب تكشف رأس الدرج، وكان النور الصغير مضاءً في الممرّ فلمحت في المرآة الآنسة تريزا منحنية على الأرض فوق الدرجة الثالثة تقريباً، فقلت في نفسي: ما بالها؟ أهي مريضة؟ ولكنها

ما لبثت أن نهضت واقفة، فاعتقدت أن قدمها قد انزلقت أو أن منديلها وقع منها فانحنت تلتقطه.

فقال بوارو: لقد قلتِ إنك كنت نائمة فاستيقظت فجأة على صوت دقّات خفيفة، فهل يمكن أن تكون هي صوت دقّ المسمار في الجدار؟

- الآن أصبحت أعتقد ذلك يا سيد بوارو.

- هل أنت واثقة من أن التي رأيت صورتها في المرآة هي الآنسة تريزا أراندل؟

- طبعاً واثقة تماماً يا سيد بوارو.

- ألا يجوز أن تكون تلك التي رأيتها هي السيدة تانوا أو إحدى الخادمات؟

- نعم، لا يمكن، فأنا متأكّدة مما أقول.

فقال لها: هل يمكن أن نعيد تمثيل المشهد الذي حدث يا آنسة لاوسون؟

- تمثيل المشهد؟! ماذا تعني؟

- أعني أن نصعد إلى غرفة نومك وتروي لي قصّتك مجسَّدة، أي بطريقة التمثيل.

صعدنا إلى الطابق الأعلى، وجلست الآنسة لاوسون في فراشها بعد أن واربت الباب ثم قالت: استيقظت على صوت الدقّات الخافتة فشممت رائحة الطلاء، ثم جلست في الفراش أفكّر في مشكلة اللحم، وفجأة رأيت صورة الآنسة تريزا منعكسة على

صفحة المرآة وهي منحنية فوق الدرج.

- وهل رأيت وجهها؟

- لا؛ فقد كان الوجه خارجاً عن نطاق المرآة.

- إذن كيف عرفت أن تلك التي رأيتِها هي الآنسة تريزا بعينها؟

فأجابت قائلة: أولاً كانت مرتدية رداء نومها الأخضر، وثانياً كان فوق صدرها الدبوس الفضي المحفورة عليه الحروف الأولى من اسمها.

- وما هي تلك الحروف؟

- الحرفان «ت ا»، أنا أعرف ذلك الدبوس تمام المعرفة.

فسألها قائلاً: هل تستطيعين أن تقسمي في المحكمة على أن التي رأيتِها هي الآنسة تريزا؟

- بالطبع، أنا على استعداد إلى أن أشهد بذلك.

ثم سألَته قائلة: ولكن هل ستوجّهون الاتهام إلى الآنسة تريزا؟

- هذا يتوقّف على نتيجة التشريح.

فاشتدّ الانفعال بالآنسة لاوسون وهتفت باستنكار قائلة: تشريح؟! يا إلهي! هل ستشرّحون جثة الآنسة أراندل؟

- هذا محتمَل جداً.

- هذا أمر فظيع! ولكن أسرتها لن توافق على التشريح.

- ومَن قال إننا بحاجة إلى موافقة الأسرة؟ المحكمة هي التي ستصدر أمراً بتشريح الجثة عندما يثبت أن الآنسة أراندل ماتت مقتولة.

- ولكن الآنسة تريزا لم تكن في البيت عندما ماتت عمّتها فكيف يمكن أن توجّهوا إليها الاتهام؟ يا إلهي، هذا فظيع!

فقال بوارو: أرجو أن لا تدعونا الظروف إلى اتخاذ هذا الإجراء يا آنسة لاوسون.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: ألا زلت على استعداد لأن تقسمي على أنك رأيت الآنسة تريزا ليلة الحادث منحنية فوق الدرج؟

- نعم، أنا على استعداد لأداء هذه الشهادة.

- وهل تقسمين على أنك رأيت هالة من النور حول رأس الآنسة أراندل في أثناء جلسة تحضير الأرواح كما ذكرت لي الأختان تريب من قبل، تلك الجلسة التي أُصيبت في أثنائها بالمرض الذي أدّى إلى وفاتها؟

فقالت: لم يكن ما رأيته هالة من النور ولكنه كان أشبه بشريط من مادة مضيئة خرج من فمها وانعقد كهالة حول رأسها، وكنت أعتقد أنه لا يلبث أن يتشكّل على صورة وجه، لولا أنها شعرت بأوجاع المرض في تلك اللحظة فجأة فانفضّت الجلسة. لقد كانت الأرواح قد أوشكت على أن تتجسّد أمام أبصارنا.

فقال لها بوارو: أرجو أن تكتمي كل ما دار بيننا من حديث يا آنسة لاوسون.

- ثِق أنني سأكون كتومة.

وعند انصرافنا كان آخِر شيء رأيناه هو نظرة بلهاء شاردة تشيّعنا بها الآنسة لاوسون ونحن في طريقنا إلى الباب.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

ما إن غادرنا فيلاّ ليتل غرين حتى ابتدرني بوارو وقد تجهّم وجهه قائلاً: هيستنغز، ألم يخالجك شعور بأن في قصّة الآنسة لاوسون هذه شيئاً غامضاً مريباً، أو شيئاً غير مفهوم، أو خطأ ما؟

فقلت: ماذا تعني؟ وما وجه الخطأ في قصّتها؟

فأجاب قائلاً: لا أدري! ولكنني موقن بأنه يوجد خطأ ما. إن الوقائع التي ذكرَتها لا تتلاءم مع منطق الأحداث.

- أية وقائع تعني؟

- أعني رؤيتها للآنسة تريزا منحنية فوق رأس الدرج. نعم، يوجد خطأ ما، وإن كنتُ لا أدري كنهه حتى هذه اللحظة.

- ولكنها متأكّدة تماماً من أنها رأت تريزا أراندل في ذلك الموضع!

- هذا ما قالته، ومع ذلك يوجد خطأ ما دون شكّ.

فقلت معترضاً: ولكن كيف تُخطئ وقد كان الضوء الصغير كافياً تستطيع معه أن تميّز وجه الآنسة تريزا؟

- ولكنها لم ترَ وجهها على صفحة المرآة.

- هذا صحيح، فقد رأت رداء النوم الأخضر والدبوس المثبّت بصدرها وعليه الحروف الأولى من اسمها.

فقال بوارو بإصرار وعناد: ما دامت لم ترَ وجه تريزا فهي غير متأكّدة إذن. لقد رأت رداء النوم الخاص بتريزا ودبوس تريزا فاستقرّ في ذهنها أن المرأة التي رأتها لا بدّ أن تكون هي تريزا، فإذا صحّ رأيها وكانت المرأة هي تريزا فإن ترابط المقدّمات والنتائج يختلّ ويتهاوى.

فسألته قائلاً: ولماذا أثرت موضوع استحضار الأرواح في حديثك وأشرت إلى هالة النور التي ظهرت حول رأس الآنسة أراندل ساعة إصابتها بالمرض المفاجئ في أثناء جلسة الأرواح؟

فأجابني بغموض قائلاً: لأن لهذا الأمر أهميته الكبرى. سأحدّثك عن ذلك فيما بعد، أما الآن فهيا بنا نسرع إلى لندن، طِر إليها بأقصى سرعة ممكنة كي نحول دون وقوع جريمة قتل أخرى.

ولم أحاول أن أسأله عن تلك الجريمة التي يتوقّعها لأنني أعلم من تجاربي أنه سيلوذ بالصمت ولن يجيب، ثم سألته قائلاً: وإلى أين تريد أن أذهب بك في لندن؟

- سنزور الآنسة تريزا أراندل لنعرف منها الحقيقة قبل كل شيء.

فقلت معترضاً: وهل هذا معقول؟! إنها ستنكر دون شكّ.

- قد يكون الإنكار صادقاً أحياناً وقد يكون كاذباً، وهيركيول

بوارو يستطيع أن يفرّق بين الصدق والكذب يا صديقي.

لم نتكلم طوال الطريق إلا قليلاً فقد كان بوارو غارقاً في خواطره، وحين بلغنا بيت بوارو تلقّانا خادمه بقوله: إن الدكتور تانوا هنا يا سيدي، وقد مضى عليه نصف ساعة وهو في انتظارك لأنني أبلغته بأنك اتّصلت بي هاتفياً وقلت إنك في طريق العودة.

ثم أردف قائلاً: وفي الصباح الباكر جاءت سيدة تسأل عنك، وقد اكتأبَت كثيراً حين عرفت أنك متغيّب عن البيت، وكان ذلك قبل اتصالك بي هاتفياً.

فسأله بوارو قائلاً: هلاّ وصفتها لي؟

فوصفها، فقلت على الفور: إنها السيدة تانوا دون شكّ.

فاستطرد الخادم قائلاً: وكانت السيدة في حالة شديدة من الانفعال والاضطراب وذكرت أنه من الأهمية بمكان أن تقابلك على الفور.

فقال بوارو: من المؤسف أنني لم أكن موجوداً لأعرف ما جاءت السيدة تانوا لتفضي به إليّ. هذه هي المرّة الثانية التي تحاول فيها السيدة تانوا أن تصارحنا بشيء ثم يخوننا الحظّ.

فقلت: لعلنا نكون أسعد حظاً في المرّة الثالثة.

فقال: والآن لنرَ ما يكون من شأن زوجها.

* * *

هبّ الدكتور تانوا واقفاً حين دخلنا عليه قاعة الاستقبال، وأخذ يعتذر إلى بوارو عن إزعاجه بتلك الزيارة المفاجئة التي على

غير موعد ثم أردف قائلاً: أنا قلق بشأن زوجتي يا سيد بوارو، قلق جداً.

فسأله بوارو قائلاً: ما الذي حدث؟

- هل رأيتها مؤخّراً يا سيد بوارو؟

وكان سؤالاً عادياً، ولكن نظرة العينين التي اقترنت به هي التي أثارت الريب والشكوك، فأجابه بوارو قائلاً: لا، أنا لم أرَها منذ قابلتكما في الفندق.

- لقد خطر لي أنها ربما كانت قد حضرت لزيارتك.

- ولماذا تزورني؟ هل يوجد سبب يدعوها إلى ذلك؟

فأجاب الدكتور تانوا: لا، لا، ولكنني لا أكتمك أنها في الوقت الحاضر شديدة الاضطراب مختلّة الأعصاب، إنها في حالة انهيار عصبي.

فقال بوارو مواسياً: هذا نبأ يؤسَف له يا دكتور تانوا.

فاستطرد الدكتور تانوا قائلاً: إنها مصابة بما يُسمى طبياً «جنون الشعور بالاضطهاد».

فقال بوارو: ولكن ما شأني أنا بهذا حتى تأتي لزيارتي؟

- لقد خطر لي أن زوجتي قد تجيء لزيارتك أو أنها أتت فعلاً، وأعتقد أنها ستزعم لك أنها في خطر منّي.

- ولماذا تقصدني أنا بالذات؟

فلاحت على شفتَي الدكتور تانوا ابتسامته الرقيقة الدمثة وقال:

لأنك من أبرع رجال الشرطة السريين يا سيد بوارو، وقد لاحظت عند مقابلتها لك أنها كانت معجبة بك ومنفعلة أشدّ الانفعال.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: أنا أحب زوجتي أشدّ الحب يا سيد بوارو.

وكانت في صوته نبرة انفعال متهدّجة وهو يقول هذا، ثم استطرد قائلاً: وبيننا حنان متبادل، وكان إقدامها على الاقتران بي رغم معارضة أهلها شجاعة كبيرة منها؛ إذ اضطُرت إلى أن تتخلى عن أهلها وجميع أصدقائها وتهجر بلادها لتصحبني إلى بلاد الحبشة من أجلي، ولهذا لا أدري ما الذي دهاها! إنها تعتقد بأنني أريد أن أقتلها.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: هذه حالة معروفة من حالات الاختلال العقلي، ولهذا رأيت أن أدخلها مصحّة نفسية.

كان صوته نابضاً بالحزن والأسى وهو يردّد هذه الكلمات، ثم نهض واقفاً وهو يقول: أرجو أن تخبرني إذا حضرت زوجتي لزيارتك يا سيد بوارو، أنا ما زلت أقيم في فندق دورهام.

- وماذا عن زوجتك؟ أهي في نفس الفندق؟

- نعم، ولكنها خرجت اليوم منذ الصباح الباكر دون أن تخبرني ولم تعُد حتى لحظة حضوري إليك.

- وماذا عن الأطفال؟ هل ما زالوا في الفندق؟

- لا، بل صحبتهما معها، وهذا ما أثار قلقي.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: إذا جاءت إليك وروت

لك أنني أريد أن أقلتها فأرجو أن لا تصدّقها؛ فهذا من أعراض الاختلال العقلي.

ثم حيّانا الدكتور تانوا واستدار منصرفاً. وعند الباب ناداه بوارو وسأله قائلاً: دكتور تانوا، هل سبق أن وصفت لزوجتك منوّم الكلورال؟

ففزع تانوا واستدار قائلاً: لا، أنا لم أصِف لها الكلورال، ولكن هذا محتمل. أعتقد أن ذلك كان منذ فترة طويلة، ولكنها رفضت أن تشتريه لأنها تكره الأدوية المنوّمة.

فقال بوارو: هذا لأنها لا تثق بك.

فبان الغضب الشديد على وجه الدكتور تانوا، ولكن بوارو عجّل بقوله: وعدم الثقة عرَض من أعراض الاختلال العقلي، أليس كذلك؟

فسُرّي عن تانوا وقال مؤمّناً: طبعاً، طبعاً.

وما إن انصرف الدكتور تانوا حتى اتصل بوارو بفندقه وطلب أن يتحدّث إلى السيدة تانوا، فأُجيب عليه بأنها غادرت الفندق مع طفليها منذ الصباح الباكر ثم رجعت وحدها في الساعة الحادية عشرة وأخذت حقائبها وانصرفت.

- وهل عرف زوجها أنها أخذت حقائبها؟

- لا؛ فقد كان متغيباً عن الفندق عند حضورها.

- وهل تركت عنوانها الجديد؟

- لا يا سيدي، إنها لم تترك عنواناً.

تناولنا الغداء في البيت، وحين هممنا بالخروج قال بوارو لخادمه: إذا جاءت السيدة تانوا في أثناء غيابي فحاول أن تستبقيها في انتظاري، وإذا جاء زوجها فإياك أن تدعه يراها أو يعرف بوجودها.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

كانت تريزا أراندل متأهّبة للخروج عندما ذهبنا إلى لقائها، فقال لها بوارو معتذراً: أرجو أن لا تعوقك زيارتي عن الخروج إلا دقائق قليلة.

ولكنها رحّبت وقالت ضاحكة: أنا معتادة على أن أتأخّر نصف ساعة عن موعدي، ولا يهم أن أتأخّر في إحدى المرات ساعة كاملة.

أما خطيبها الدكتور دونالدسون الذي كان في قاعة الاستقبال يترّقب أن تفرغ من ارتداء ثيابها فقد بان عليه الضيق لحضورنا المفاجئ، فسألت تريزا بوارو قائلة: أرجو أن تكون قد قابلت المحامي بيرفيس، فما الذي قاله يا تُرى؟

فأجابها بوارو بغموض قائلاً: توجد احتمالات مختلفة يا آنسة.

فنظرت تريزا إلى خطيبها الذي كان منزوياً في أحد أركان القاعة يطالع كتاباً ثم نقلت بصرها إلى بوارو، فأدرك من هذا أنها تحذّره من الإفاضة في الموضوع أمام خطيبها، ثم استطرد بوارو قائلاً: أنا عائد لتوّي من زيارة الآنسة لاوسون في فيلاّ ليتل

غرين، ولذلك أحب أن أوجّه إليك سؤالاً: هل حدث في ليلة الإثنين الموافق الثالث عشر من شهر نيسان (أبريل)، أي ليلة عطلة المصارف، أنك كنت منحنية فوق رأس الدرج، وذلك بعد منتصف الليل حين أوى الجميع إلى أسرّتهم؟

فقالت تريزا: يا له من سؤال عجيب يا سيد بوارو! بالله عليك لماذا أنحني على رأس الدرج؟

- ليس السؤال لماذا كنت منحنية، بل السؤال هو: هل فعلت ذلك حقاً؟

فهزّت رأسها وقالت: ألا ما أسخفه من سؤال! ألا ترى هذا يا عزيزي ريكس؟

فرفع الدكتور دونالدسون رأسه عن الكتاب الذي بين يديه وقال: معذرة يا سيد بوارو، ولكن ما هو هدفك من وراء هذا السؤال؟

فأجابه بوارو بصراحة ودون مواربة: لقد دقّ أحدُهم مسماراً في الجدار عند رأس الدرج ودهنه بطلاء بُني كي يحاكي لون الجدار.

فقالت تريزا: ليكن ولنفرض أن شخصاً ما دقّ ذلك المسمار، فما أهمية ذلك؟

- أهمية ذلك أنه في مساء اليوم التالي، الثلاثاء، ربط أحدهم خيطاً في المسمار ثم ربطه في سياج الدرج عبر الدرجة العليا، فكانت النتيجة أن تعثّرت الآنسة أراندل بالخيط واختلّ توازنها، فتدحرجت من أعلى الدرَج إلى أسفله وكادت عنقها أن تُدَقّ.

فقالت الآنسة تريزا مبهورة الأنفاس: أنت مخطئ في هذا يا سيد بوارو؛ فقد تعثّرت عمتي بكرة بوب التي كانت ملقاة فوق الدرجة العليا.

- بل أنت المخطئة يا آنسة لأنها تعثّرت بالخيط لا بالكرة.

فانبرى الدكتور دونالدسون متدخّلاً في الحديث بقوله: وأي دليل لديك على صحّة هذه الواقعة؟

- الدليل هو وجود المسمار نفسه، ثم خطاب الآنسة أراندل إليّ بخطها وتوقيعها، وأخيراً شهادة الآنسة لاوسون وهي شاهدة عيان.

فهتفت تريزا قائلة: هل تزعم تلك المعتوهة أنني أنا التي فعلت ذلك؟

فاكتفى بوارو بأن أومأ برأسه مؤمناً، فقالت تريزا بغضب وانفعال: تلك المرأة كاذبة! لا شأن لي بهذا أبداً.

- هل كنت منحنية بأعلى الدرج لأي سبب آخر غير دقّ المسمار؟

- أنا لم أنحنِ بأعلى الدرج قطّ، لا لهذا السبب ولا لغيره.

- أرجو أن تشحذي ذاكرتك يا آنسة.

فأجابت قائلة: طول إقامتي عند عمّتي كنت لا أغادر غرفتي حين آوي إلى فراشي قطّ.

- ولكن الآنسة لاوسون رأتك فوق الدرَج بعد منتصف الليل.

– عليها اللعنة! إنها إما أن تكون كاذبة لغرض في نفسها أو أن بصرها خدعها.

ثم أردفت قائلة: ألا يحتمل أنها شاهدت شخصاً آخر، مثل بيلا أو إحدى الخادمات فاشتبه عليها الأمر؟

– إنها تؤكّد أنها رأتك أنت.

– كاذبة مفترية!

– لقد تعرّفت على رداء نومك الأخضر والدبوس الذي تتحلّين به.

– أي دبوس؟

– دبوس محفور عليه الحروف الأولى من اسمك، فهل لديك دبوس بهذه الأوصاف حقاً؟

– ولماذا أنكر؟ نعم، لديّ دبوس بهذا الوصف وسآتي به.

ثم عادت بالدبوس بعد لحظات، وكان دبوساً عادياً مصنوعاً من الفضة، عبارة عن حلقة مستديرة مفرَغة يتوسّطها حرفان كبيران هما أول حرفين من اسمها «ت ا». ولم يكن يوجد شكّ في أنه كان بوسع الآنسة لاوسون أن تراهما منعكسَين على صفحة المرآة لكبر حجمهما.

ثم قالت الآنسة تريزا: لقد ظهر هذا الدبوس في الأسواق منذ عامين وكان ابتكاراً رائعاً استرعى الأنظار، ولكنني لم أعُد أتحلى به وأنا أسير في الطريق لأنه انتشر وأصبح مبتذَلاً تتحلى به حتى أفقر النساء بعد أن رخص ثمنه إلى أقلّ من ربع الثمن الأصلي، لذلك اكتفيت بأن أعلّقه في صدر رداء نومي.

- وهل كان هذا الدبوس معك في أثناء زيارتك لعمتك؟

- ربما، أظن ذلك.

- وهل أعرتِه أحداً وأنت هناك؟

- لا، بل كان مثبّتاً في صدر رداء نومي.

- هل يُحتمَل أن يكون أحدٌ قد نزعه من الرداء ثم أعاده مكانه في الصباح؟

فنظرت تريزا إلى بوارو وقالت: أتريد بهذا السؤال أن تلقّنني دفاعاً ألقيه في المحكمة يا سيد بوارو؟ أتريد أن توحي إليّ بأن أدافع عن نفسي بأن شخصاً ما أراد أن يلقي عليّ تهمة كاذبة؟ لا يا سيد بوارو، مثل هذا الأمر مستبعَد جداً، ثم مَن هذا الذي يسعى إلى تلفيق تهمة ضدّي؟

فتناول بوارو الدبوس ووضعه في صدر سُترته، ثم وقف أمام المرآة يتأمّل نفسه، وفجأة هتف قائلاً: يا إلهي، لقد تجلى السرّ! ألا ما كان أغباني!

ثم عاد إلى تريزا فناولها الدبوس وهو يقول: أنت صادقة يا آنسة تريزا في كل ما قلت. نعم، إن هذا الدبوس لم يخرج من حوزتك لحظة واحدة. أنا آسف. لقد كنت مخطئاً في تصوّراتي.

فسألته قائلة: أتريد أن توجّه لي أسئلة أخرى؟

فأجابها بالنفي، ثم سرنا إلى الباب كي ننصرف، وفجأة قال بوارو: إن المسألة قد تدعو إلى تشريح جثة عمّتك.

ففزعت تريزا وأفلتت أصابعها الدبوس فوقع على الأرض، ثم

غمغمت بفزع قائلة: تشريح جثّة عمتي؟! ما هذا الذي تقول؟

فأجابها قائلاً: نعم، إن تطوّر الأحداث قد يؤدّي إلى هذا.

- ولكن من المستحيل أن يتمّ ذلك موافقة الأسرة، وليس فينا من يرضى بهذا الإجراء.

- من حقّ المحكمة أن تأمر بتشريح الجثّة دون حاجة إلى موافقة الأسرة.

فهتفت قائلة: يا إلهي! أما من وسيلة للحيلولة دون إجراء هذا التشريح؟

فانبرى الدكتور دونالدسون يجيب قائلاً: هذا يتوقّف على السبب الذي أدّى إلى وفاة الآنسة أراندل، ولا يداخلني أي شكّ في أن موتها كان طبيعياً بسبب مرض مزمن، وإن كنت أرى أنه لا داعي إلى أن تنزعجي إذا تقرّر تشريح الجثة.

فقالت تريزا لخطيبها: أنا أذكر أنك حدّثتني يوماً عن أرنب من أرانب التجارب مات نتيجة حقنة بمادّة أصابت وظائف الكبد باختلال شديد، وأعتقد أنك ذكرت لي أنك حقنت الأرانب بدم شخص مُصاب بضمور الكبد، وبعد ذلك حقنت بدم الأرنب شخصاً سليماً فأُصيب بالمرض.

فقال دونالدسون: لم أقُل إنني قمت بمثل هذه التجربة فعلاً، ولكنني أردت أن أضرب لك مثالاً على التجارب المعملية التي يمكن إجراؤها فقط.

ثم التفتت تريزا إلى بوارو وناشدته بأن يبذل كل ما في وسعه للحيلولة دون تشريح جثة عمّتها. وعند انصرافه راحت تلحّ عليه

متوسّلة بأن يولي ذلك الأمر كل اهتمامه، فوعدها بوارو بأنه سيبذل أقصى جهده.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

لم يُعد لدي شكّ في أن الآنسة أراندل ماتت مقتولة وأن تريزا تعرف ذلك. في البداية كنت أعارض بوارو في هذا الرأي، أما الآن فعدت أقرّه على نظريته واستنتاجاته. ها هي ذي تريزا خائفة يرعبها تشريح جثّة عمتها، فهل كانت خائفة على نفسها أم على شخص آخر؟ أو بعبارة أدق: هل كانت خائفة على خطيبها، ذلك الطبيب الشاب؟ قد تكون الآنسة أراندل ماتت ميتة طبيعية في ظاهرها ولكنها حُقنت خُفية بجرثومة مرض معيّن فأصاب الداءُ جسدَها وقضى عليها.

إن دونالدسون طبيب عالِم مولع بالأبحاث وإجراء التجارب، والأبحاث تفتقر إلى المال الوفير، فإذا ماتت الآنسة أراندل استولت خطيبته على نصيبها من الميراث، وحينئذ يتّسع المجال أمامه لإشباع هوايته العلمية. ولكن مَن الذي دقّ المسمار في جدار الدرج؟ لا شكّ في أن تريزا هي التي فعلت ذلك حتى تعجّل بالميراث؛ فهي تبدو شديدة الوله بالطبيب الشاب ولا شكّ في أنها تريد أن تُقدّم إليه العون في أبحاثه العلمية بأن تمنحه المال الذي ينقصه. إن طبيعة الجريمتين مختلفة، فشَدُّ الخيط عبر أعلى الدرج جريمة تصدر عن عقلية نسائية، أما حقن الضحية بمرض قاتل فجريمة لا تخطر إلى على بال طبيب عالِم.

ثم لماذا أشارت تريزا إلى ما حدّثها به دونالدسون عن حقن أرانب التجارب بمادة الوباء الكبدي؟ أتُراها تعلم أن خطيبها هو القاتل الخفي أم أنها ترمي إلى هدف معيّن؟ كانت تلك الخواطر تعتمل في رأسي وأنا أقود السيارة. ثم انتزعت نفسي من تلك الدوامة وسألت بوارو قائلاً: والآن إلى أين؟

فأجاب قائلاً: إلى مسكني، فلعل السيدة تانوا عادت وتريد مقابلتي.

وعند هذا اتخذَت خواطري اتجاهاً آخَر، إذا كان دونالدسون وتريزا هما المتّهمان فما هو موقف تلك المرأة الأخرى السيدة تانوا؟ إنها لغز غامض محيّر. ما الذي تخفيه في نفسها وتريد أن تُفضي به إلى بوارو؟ ولماذا كان زوجها الدكتور تانوا حريصاً على أن يحول دون لقائها ببوارو، حتى فكّر في أن يودعها إحدى المصحّات بعيداً عن متناوله؟

ثم التفتت إلى بوارو فسألته قائلاً: ما رأيك؟ هل تريزا هي القاتلة حقاً؟ أعني أهي التي شدّت الخيط عبر الدرجات؟

فأجابني قائلاً: هذا إذا كانت الآنسة لاوسون صادقة في روايتها عن رؤيتها تريزا منحنية أعلى الدرج بعد منتصف الليل، ويجب أن لا تنسى أنها تعرّفت عليها بواسطة الدبوس المثبّت بصدر الرداء الأخضر.

فقلت مؤمّناً: هذا صحيح.

- إذن لا تنسَ أنه يمكن انتزاع ذلك الدبوس من الرداء خُفية ثم إعادته إلى مكانه بعد الفراغ من دقّ المسمار.

- ولكن تريزا أكّدت لك أن الدبوس لم يخرج من حوزتها لحظة واحدة.

فقال بوارو: وأظنها على حق في هذا، فتريَّثْ بُرهة حتى نصل إلى مسكني وعندها سأقوم بتجربة أُشبع بها فضولك.

* * *

قال لنا خادم بوارو وهو يفتح لنا الباب: السيدة تانوا لم تحضر ولم تتصل هاتفياً.

فاتّصل بوارو بالدكتور تانوا في فندق دورهام وسأله عن زوجته، فردّ عليه بأنها لم تعُد إلى الفندق بعد وأنها حضرت في غيبته فأخذت حقائبها، فقال له بوارو: إذا أردت أن أبحث لك عنها فأنا رهن مشيئتك، وأنت تعلم أنني شرطي خاص كتوم على عكس رجال الشرطة الرسميين.

فأجابه تانوا قائلاً: لا، لا، شكراً لك.

ثم أعاد السمّاعة مكانها والتفت إليّ قائلاً: إنه لا يعرف مكانها، وقد يكون مفهوماً من عدم إبلاغه الشرطة أنه لا يريد أن يصبح اسمه مضغة في الأفواه، أما أن يرفض خدماتي فهذا هو الشيء الذي لم أُدرك سرّه.

فتساءلت قائلاً: هل تظن أنه صادق في قوله بأن زوجته مصابة باختلال عقلي؟

- إنه مسرف في المبالغة يا عزيزي. قد تكون السيدة تانوا مصابة باضطراب عصبي ولكن ليس للدرجة التي تدعو إلى إيداعها المصحة.

فقلت: لقد تناول دونالدسون العشاء في فيلاّ ليتل غرين ليلة الحادث، أفلا يجوز أن يكون هو الذي قام بشدّ الخيط عبر الدرجة العليا؟

- إن دونالدسون ذو عقلية علمية ليس من شأنها أن تفكّر في هذه المكيدة البسيطة ذات الطابع النسائي، ولذلك أستبعد أن يكون له شأن بمحاولة القتل الأولى.

فقلت: إذن فقد قام شخصان مختلفان بمحاولتَي القتل، وكان كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخَر، أليس كذلك؟

- ألا ترى أن من المصادفات العجيبة أن يكون القاتل في الحالتين شخصاً واحداً؟

- إذن فالآنسة تريزا أراندل هي القاتلة في الحالتين؟

- وَمن أنبأك بهذا يا صديقي العزيز؟

- ألم تقُل الآنسة لاوسون إنها رأت تريزا وهي...

فقاطعني بملل قائلاً: يا إلهي! الآنسة لاوسون قالت، الآنسة لاوسون رأت... بالله عليك دعك من الآنسة لاوسون وحكايتها.

وصمت قليلاً ثم قال: لحظة واحدة، أنا أريد أن أُجري أمامك تجربة صغيرة.

ثم جاء بقطعة من الورق المقوّى وأخذ يقصّ أطرافها ويشكّلها بطريقة معيّنة، ثم عرضها عليّ فإذا بها صورة مطابقة للدبوس الذي تملكه الآنسة تريزا، عبارة عن حلقة كبيرة يتوسّطها حرفان حجمهما كبير هما «ت ا»، أي أول حرفين من اسم تريزا أراندل. ثم شبك

بوارو الدبوس في صدره وقال لي: لقد روت لنا الآنسة لاوسون أنها رأت على صفحة المرآة تريزا منحنية فوق رأس الدرج، وكانت وسيلتها إلى التعرّف عليها هي هذا الدبوس المحفور عليه أول حرفين من اسمها «ت ا»، أليس كذلك؟

فأجبت قائلاً: بلى، هذا هو ما أكّدته لنا.

فقال بوارو: ها هو الدبوس معلّق فوق صدري وعليه الحرفان «ت ا». والآن انظر إلى المرآة يا صديقي وأخبرني بما ترى.

فنظرت إلى المرآة ثم هتفت بدهشة قائلاً: يا إلهي، أنا أرى شيئاً آخَر مختلفاً!

فسألني بوارو قائلاً: ما الذي تراه؟

- حرفين، ولكنهما ليسا «ت ا» بل «ا ت».

- تماماً يا صديقي، لأن المرآة تجعل الصورة مقلوبة، فالحرفان اللذان رأتهما الآنسة لاوسون لم يكونا في أصلها الحرفين «ت ا» بل الحرفين «ا ت»، ولكنهما ظهرا لها مقلوبَين على المرآة فرأتهما معكوسَين، فأقسمت أن المرأة المنحنية بأعلى الدرج هي تريزا أراندل لأن اسمها يبدأ بهذين الحرفين.

فهتفت بدهشة واستغراب قائلاً: يا إلهي! إذن فصاحبة الدبوس لم تكن تريزا أراندل بل امرأة أخرى يبدأ اسمها بالحرفين «ا ت»!

- أجل يا صديقي، وهذا هو السبب في أنني قلت لك إن في رواية الآنسة لاوسون عن الدبوس خطأ ما لا أدري كنهه؛ خطأ لا يتلاءم مع اعتبار تريزا هي القاتلة، ولكنني لم أفطن إلى هذا الخطأ

إلا عندما أخذت الدبوس من تريزا ووضعته في صدري ونظرت إلى نفسي في المرآة.

وضحك ثم استطرد قائلاً: إن هيركيول بوارو قد يُصاب بالغباء في بعض الأحيان رغم عبقريته!

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، فلبى بوارو الرنين وسمعته يقول: حسناً يا دكتور دونالدسون، لا مانع لدي. إذن سأقابلك غداً في الساعة الثانية بعد الظهر، إلى اللقاء يا دكتور.

* * *

الفصل السادس والعشرون

عندما جئت أزور بوارو في صباح اليوم التالي عقب فراغي من تناول الإفطار وجدته جالساً إلى مكتبه منهمكاً في الكتابة وقد فرغ من كتابة بضع صفحات من الورق، فسألته قائلاً: فيمَ أراك منهمكاً؟

فأجاب قائلاً: أدوّن قصّة الجريمة التي نحن بصددها.

- وما الداعي؟ أتخشى أن يزيحك القاتل من الطريق فتموت وسرّك في حنايا صدرك؟

- إن القتل لعبة خطيرة يا عزيزي هيستنغز، ومَن قتل مرّة لا يتورع عن شيء.

فسألته قائلاً: أما من أنباء جديدة؟

- اتصل بي الدكتور تانوا وأخبرني بأن زوجته لم تعُد بَعد.

فقلت: أتظن أنها قُتلت يا بوارو؟

فأجاب قائلاً: كم أتمنّى أن أعرف أين هي الآن!

- وما يدرينا أنها قد تعود إلينا جثة هامدة ممزّقة الأشلاء مشحونة داخل حقيبة تسيل منها الدماء.

فقال باقتضاب: على أية حال أنا أرى أن الدكتور تانوا يسرف في القلق دون مبرّر. والآن هيا بنا فأنا أريد أن أزور الآنسة لاوسون مرة أخرى.

ومضينا على الفور إلى مسكن الآنسة لاوسون في لندن، فرحبت بنا الآنسة لاوسون بمودّة وهي تقول: معذرة إن أنا قابلتك وأنا شعثاء الشعر يا سيد بوارو؛ فقد تضاعف عبء العمل فوق أكتافي بقدوم بيلا وأولادها، فقد...

فقاطعها بوارو وقال متسائلاً: ماذا تقولين؟! هل السيدة بيلا هنا؟

- نعم، فقد جاءت مع ولدَيها صباح اليوم. إنها على خلاف مع زوجها، ذلك الطبيب اليوناني السيد تانوا، ولذلك قرّرت أن تهجره، بل هي لا تريد أن يعرف أنها مقيمة عندي. إنها قلقة بشأن الأولاد وتخشى أن ينتزعهم منها ويصحبهم معه إلى بلاد الحبشة. مسكينة بيلا! تصوّر أنه ليس معها نقود على الإطلاق ولا تدري أي مكان تلوذ به أو ما الذي يمكن أن تفعله! إنها تريد أن تبحث عن عمل، ولكنها لم تُخلق لهذا يا سيد بوارو ولم تتدرّب على القيام بأعباء أية وظيفة.

فسألها بوارو قائلاً: ومتى هجرت زوجها؟

- بالأمس، وقد أمضت ليلتها في فندق صغير بالقرب من محطة بادنغتون ثم حضرت إليّ اليوم تنشد معونتي.

- وما الذي تنوينه بشأنها؟ هل ستقدّمين لها يد المساعدة؟

- الواقع أنني أشعر أن الواجب يقضي عليّ بذلك يا سيد

بوارو، وإن كان مسكني ضيّقاً لا يتّسع لنا جميعاً.

فقال بوارو: يمكنك أن تسمحي لها بالإقامة في فيلاّ ليتل غرين.

- هذا ممكن طبعاً، ولكنها تخشى أن تخطر هذه الفكرة ببال زوجها فيباغتها بالزيارة هناك، ولذلك اتفقنا على أن تنزل على حسابي في فندق ويلنغتون في شارع الملكة، وقد حجزت لنفسها غرفة هناك منتحلة اسم السيدة بيترز، كما أنني سأنزل لها عن جزء من ثروتي.

- أحب أن أقابل السيدة تانوا، فقد حضرت بالأمس إلى مسكني لمقابلتي ولكنني كنت غائباً عن البيت.

- حقاً؟ إنها لم تخبرني بذلك.

غادرت الآنسة لاوسون الغرفة، وبعد بُرهة دخلت علينا السيدة تانوا. وقد أثارت هيئتها دهشتي؛ فقد كانت توجد هالة سوداء تحت عينيها كما كانت فيهما نظرة ناطقة بالرعب والهلع. وبعد أن حيّاها بوارو برقّة ودماثة قال لها: هل يمكننا أن نتبادل الحديث قليلاً يا سيدتي؟ لقد جئت بالأمس تزورينني، فما الذي دفعك إلى زيارتي؟ لقد جئت لتُفضي إليّ بشيء في نفسك طبعاً، فما هو يا تُرى؟

فغمغمت قائلة: تمنّيت لو أنك كنت موجوداً حينئذ.

- على أية حال أنا رهن إشارتك الآن.

فلاذت السيدة تانوا بالصمت وأخذت تفرك يديها باضطراب، فقال لها بوارو: أرجو أن تصارحيني بما تريدين يا سيدتي.

فأجابت قائلة: لا، لا، أنا لا أستطيع.

- هل أنت خائفة؟ ولكن ممّن تخافين؟ من زوجك؟

فأومأت برأسها قائلة: طبعاً منه، ولو أنه عرف أنني تحدّثت إليك لألحق بي أذى شديداً.

وساد الصمت برهة قصيرة قال بعدها بوارو: لقد زارني زوجك بالأمس يا سيدتي.

فأطلّت من عينيها نظرة حافلة بالذعر ثم همست قائلة: وماذا قال؟

فأجاب بوارو بموارية واحتراس: قال إنك مضطّربة إلى حد كبير.

فهزّت رأسها قائلة: لا، لم يقُل ذلك، أنا متأكدة؛ لا بدّ أنه قال إنني مجنونة أو إنني على شفا الجنون. إنه يريد أن يحبسني في مصحّة حتى لا أتكلّم.

- وعن أي شيء تتكلّمين؟

فهزّت رأسها ومضت تفرك أصابعها بعصبية وهي تردّد قائلة: لا، لا، أنا خائفة.

- لا تخافي شيئاً يا سيدتي، أنا بجانبك وسأدافع عنك وأحميك.

وأخذ جسدها يرتعد انفعالاً ثم انفجرت قائلة: منذ سنوات وأنا أُلاحظ أشياء غريبة مريبة، ولكنني صبرت وتغاضيت حفاظاً على الأولاد، أما الآن فلم أعُد أطيق أو أحتمل. نعم، سأختفي

بعيداً أنا والأولاد ولن أدعه يقف لي على أثر، والآنسة لاوسون ستساعدني، فهي امرأة طيّبة كريمة القلب.

ثم عادت تسأل بوارو قائلة: ما الذي قاله زوجي عنّي؟ هل قال بأنني أهذي؟ هل قال بأنني مصابة بالهلوسة؟

فأجابها بوارو قائلاً: بل قال إنك تغيّرت عمّا كنت وإنك تتخيّلين أشياء لا وجود لها.

- أهذا ما قاله؟ لا يا سيد بوارو، أنا لا أتخيّل. كل ما هنالك أنني أفتقر إلى الدليل. مَن ذا الذي سيصدّقني ولا دليل لديّ؟ بل إنهم سيصدّقونه إذا ما رماني بالجنون لأنه طبيب يدرك معنى ما يقول.

وساد الصمت برهة، ثم مال إليها بوارو وسألها بنبرة رسمية قائلاً: هل ترتابين في أن زوجك قتل الآنسة إميلي أراندل يا سيدتي؟

فجاءنا الجواب حاسماً وفورياً قائلة: أنا لا أرتاب، بل أعرف؛ أنا أعرف أنه هو الذي قتلها.

- إذن فالواجب يقضي عليك بأن تتكلّمي.

- لا أدري، ولكنه قتلها على أية حال.

- وكي أصدّقك يجب أن تتكلّمي. كيف قتلها؟ إذن أنت لا تعرفين الطريقة التي استخدمها.

- أجل، ولكنه فعل شيئاً يوم الأحد السابق لوفاتها حين زارها وحده دون أن يصحبني.

- ولكنك لا تعرفين على وجه التحديد ما فعله، أليس كذلك؟

فلما أجابت بأنها لا تعرف قال لها بوارو: معذرة يا سيدتي، ولكن كيف تكونين متأكّدة؟

- أنا متأكّدة، متأكّدة تماماً.

ثم هبّت فجأة واقفة وهي تردّد بانفعال قائلة: لا، لا، أنا لا أستطيع أن أتكلّم، إنه والد أطفالي على أية حال ومحال أن أتكلّم.

وعلا صوتها كأنها تصرخ وتصيح، ثم فُتح الباب وأقبلت الآنسة لاوسون مهرولة والانفعال ظاهر على قسمات وجهها وقالت: بيلا، حبيبتي! ألا يحسُن بك أن تتناولي قدحاً من الشاي أو كأساً من عصير الليمون؟

فهزّت السيدة تانوا رأسها نفياً، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة وقالت: أنا بخير، شكراً لك. ما أشدّ عطفك عليّ! ليت شعري ماذا كنت أصنع لولاك؟

فقالت الآنسة لاوسون: ألا تكفّين عن ترديد هذا الحديث يا ابنتي؟ كفاك بكاء، إن الأمور ميسّرة وستكون على ما يُرام. وحدّثي السيد بوارو بما في نفسك، فهو رجل حكيم يستطيع أن يمنحك النصيحة المثلى. آه! ها هو الجرس يدقّ. مَن القادم يا تُرى؟

وغادرت الغرفة مسرعة، ثم عادت بعد لحظات والفزع باد على وجهها وهمست قائلة: إنه زوجك يا عزيزتي بيلا، ولكن اطمئني فأنا لم أخبره بأنك موجودة هنا.

هُرعت السيدة تانوا إلى باب في صدر الغرفة وهي تقول: لا تذكروا له أنني هنا.

وتوارت خلف الباب مسرعة، ثم ما لبثت أنا وبوارو أن لحقنا بها فإذا بنا في ردهة صغيرة داخلية. ووارب بوارو الباب قليلاً وقد أرهف السمع، ثم التفت إلى السيدة تانوا وقال هامساً: الجو خال. لقد دخل إلى قاعة الاستقبال فهيا بنا نتسلّل إلى الخارج.

وعبرنا البهو بحذر، ثم فتحنا الباب الخارجي باحتراس وخرجنا إلى الطريق العام وسرنا مسرعين في اتجاه فندق ويلنغتون الذي تنزل فيه السيدة تانوا وأطفالها. وقال لها بوارو ونحن جلوس في بهو الفندق: والآن، أعيريني سمعك يا سيدة تانوا. إن...

فقاطعته قائلة: أرجوك يا سيد بوارو، أنا لن أُفضي إليك بكلمة واحدة وحسبك ما صارحتك به حتى الآن.

فقال لها: أرجو أن تنصتي إليّ، هَبي أنني أعرف كل ما تعرفينه أنت، أليس في ذلك ما يغيّر نظرتك إلى الأمور؟ هبي أنني خمّنت جميع الحقائق التي تعرفينها، فما رأيك عندئذ؟

فنظرت إليه بريبة وشكّ، فعاد يقول: أنا لا أخدعك يا سيدتي ولا أحاول أن أستدرجك.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً بنبرة هادئة: نعم، أنا أعرف الحقيقة ولست أكذب عليك في هذا؛ فقد دوّنت هنا كل ما لدي، فخذي هذا التقرير واقرئيه.

ثم تناول من جيبه ظرفاً دفع به إليها، وكان هو نفسه ذلك الظرف الذي رأيته في ذلك الصباح يودعه الأوراق التي كان منهمكاً

في كتابتها عند زيارتي له عقب الإفطار، ثم استطرد بوارو قائلاً: جميع الحقائق مدوّنة هنا، فبعد أن تنظري إليها ستتأكّدين من أنه لم يَخفَ عليّ شيء، وعندما تتأكّدين أرجو أن تتصلي بي هاتفياً وتصارحيني برأيك.

فأخذت السيدة تانوا الظرف منه بتخاذل ووضعته على ركبتيها، ثم استطرد بوارو قائلاً: من الأهمية بمكان أن لا يعرف زوجك الفندق الذي تنزلين فيه، ونصيحتي إليك أن تغادري هذا الفندق على الفور وأن تنزلي في فندق كونستون.

- ولكن السيدة لاوسون امرأة كتومة ولن تُفضي إليه بأنني أقيم هنا.

- هل نسيت أن زوجك رجل داهية يستطيع أن يستدرج الآنسة لاوسون إلى الحديث بسهولة؟

فأومأت برأسها موافقة، فاستطرد بوارو قائلاً: هيا اصعدي وعودي بحقائبك، والزمي فندقك الجديد ولا تبرحيه لأي سبب كان.

وعادت السيدة بيلا بعد لحظات بحقائبها يصحبها طفلاها، ثم استقلّت سيارة إلى فندق كونستون، ذهبت بها ونحن وقوف على الرصيف نتابعها ببصرنا حتى ابتعدت.

* * *

الفصل السابع والعشرون

بعد ظهر اليوم التالي جاء الدكتور دونالدسون يزورنا في الساعة الثانية ظهراً طبقاً للموعد المحدّد، وبعد تبادل التحيّة المألوفة قال دونالدسون باقتضاب: غرضي من هذه الزيارة هو أن أتأكّد من حقيقة موقفك يا سيد بوارو. إلى أي شيء انتهت تحرّياتك يا تُرى؟ لقد عرفت أنك شرطي سري أمين ونزيه وفوق الشبهات.

- شكراً لك يا دكتور.

- ولذلك حيّرتني بعض تصرّفاتك، فرأيت أن أواجهك بالحقيقة بصراحة ودون مواربة.

- تكلم فأنا مصغ إليك.

- لقد قلت للآنسة تريزا أراندل كلاماً فهمت منه أنه يمكن إلغاء الوصية، وأنا وإن لم أكن رجل قانون إلا أنني أستطيع أن أقطع بأن إلغاءها مستحيل.

فقال بوارو باسماً: هذه مجرّد أكذوبة صغيرة.

- ولكن لا بدّ أن لك هدفاً من وراء هذه الأكذوبة، وإن كان

هذا الهدف قد فات على الآنسة تريزا ولم تفطن إليه.

- يبدو أنك مطّلع على خفايا الآنسة تريزا وبواطن نفسها يا عزيزي الدكتور.

فابتسم الدكتور دونالدسون وقال: لعلّي أعرف عنها أكثر ممّا تعرف هي عن نفسها. إنها وأخاها شارل يعتقدان أنهما أقنعاك بأن تعمل في خدمتهما سعياً وراء إلغاء الوصية بطريقة ملتوية، ولهذا أحب أن أقول لك بصراحة وبلا مواربة أن شارل أفّاق مغامر مجرّد من الضمير، أما تريزا فقد ورثت عن أمها بعض طباعها الفاسدة المنحلّة.

فقال بوارو: أهكذا تتحدّث عن خطيبتك، كأنها أرنب من الأرانب التي تُجري عليها تجاربك العلمية؟!

فاستطرد دونالدسون قائلاً: أنا أحب تريزا أراندل، ولكن عيوبها لا تخفى عليّ.

فقال له بوارو: وهل تعلم أن تريزا متيّمة بك وأنها لا تسعى إلى المال إلا لكي تُرضي طموحك العلمي؟

- أنا أدرك هذا طبعاً، ولكنني لن أسمح لنفسي أن أدع تريزا تتورّط من أجلي في مسالك مخالفة للقانون. إنها ما زالت طفلة غريرة ومن واجبي أن أقوّم سلوكها.

فقال بوارو: لنعُد إلى ما كنا فيه. لست أُنكر أنني ظفرت بثقة الآنسة تريزا عن طريقة خدعة صغيرة، إذ أقنعتها بأن في وسعي إلغاء الوصية.

- إنها تعتقد بأن المال يمكن أن يشتري أي إنسان وفي سبيله

يقوم المرء بعمل أي شيء، أما شارل فهو نفسه لا يحجم عن فعل أي شيء من أجل المال.

- إن لك في صهرك رأياً عجيباً!

فقال دونالدسون: لأنني لا أحب أن أخدع نفسي.

وصمت بُرهة ثم استطرد قائلاً: وقد خرجت من سلوكك تجاههما بأنك ترتاب في أن لأحدهما، شارل أو تريزا، يداً في موت الآنسة أراندل، وإشارتك إلى تشريح الجثة لم تكن إلا مجرّد خدعة أردت بها أن تتبيّن وقع الأمر في نفس تريزا ومدى ردّ الفعل عندها، ولكنني أعتقد بأنك لم تتخذ أي إجراء في هذا الصدد.

فقال بوارو: لكي أكون صريحاً معك يجب أن أقول إنني لم أطلب تشريح جثة الآنسة أراندل حتى الآن.

- وهذا ما دار في خلدي، ولكن ما الذي تنتظره؟ لماذا لم تقُم بهذا الإجراء حتى الآن؟

- لأنني ما زلت أترقّب دليلاً يدعم شكوكي.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فأومأ إليّ بوارو بأن ألبّي النداء، وكانت السيدة تانوا هي التي تتكلم. قالت: كابتن هيستنغز؟ أرجو أن تبلغ السيد بوارو أنه على حق في كل ما كتبه في تقريره، وأنني قرّرت أن أتكلّم وأن أُفضي بكل ما عندي، فليحضر غداً في الساعة العاشرة إلى فندقي، فندق كونستون، وسوف أُقدّم إليه كل ما يريد منّي.

- حسناً، إذن إلى العاشرة صباح الغد.

ثم عاد الدكتور دونالدسون يقول: إذن فأنت تعتقد أنك بصدد قضية قتل، أليس كذلك؟

فأجابه بوارو قائلاً: بلى، وهذا الأمر لا شُبهة فيه.

- ولكن يُخيل إليّ أنه يوجد شيء من الشكّ يخامرك.

فقال بوارو: أما أنها قضية قتل فلست أشكّ في هذا لحظة واحدة، والشكّ لا يخامرني إلا بالنسبة لشخصية القاتل، ولكن غداً سيكون لدي الدليل القاطع.

فابتسم الدكتور دونالدسون ابتسامة ناطقة بالتهكّم وقال: غداً؟ إن غداً بعيد وطويل يا سيد بوارو، وما يدرينا أن الأحداث لن تتطوّر حتى يأتي الغد؟

فقال بوارو باقتضاب: لعل هذا هو ما تظنه أنت، أما أنا فأعلم أن الغد قريب، قريب جداً، بل هو أقرب ممّا تتصوّر أنت.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

سألني بوارو بعدما انصرف الدكتور دونالدسون: هل كان هذا الهاتف من السيدة تانوا؟

فنظرت إليه بدهشة وقلت: نعم، وكيف علمت ذلك؟!

فلم يُجِب بوارو على سؤالي وإنما قال: إذن فغداً في العاشرة ينجلي الغموض وينزاح الستار عن القاتل المجهول.

فقلت: إذن فلنحاول أن ننسى هذه القضية وأن لا نطرق الحديث عنها حتى يحين الغد بأحداثه.

* * *

في التاسعة من صباح اليوم التالي عندما جلس بوارو إلى مائدة الإفطار يفحص بريده اليومي كما هو شأنه المألوف رنّ جرس الهاتف فأسرعت أجيب النداء، فسمعت صوتاً نسائياً لاهثاً يقول: آه! أهذا هو أنت يا سيد هيستنغز؟

- نعم، هل أنت الآنسة لاوسون؟

- نعم، لقد وقع شيء رهيب، شيء فظيع!

فسألتها باهتمام قائلاً: ما الذي حدث؟

- لقد ذهبت بعد ظهر الأمس إلى فندق ويلنغتون لأزور بيلا، فقيل لي إنها غادرت الفندق في الصباح. أليس من الغريب أنها لم تتصل بي؟ إذن كان الدكتور تانوا على حق بشأنها، لا بدّ أنها مصابة باختلال عقلي!

- ولكن ما الذي حدث بالضبط يا آنسة لاوسون؟ هل كل ما هنالك أنها تركت الفندق دون أن تخبرك؟

- لا، لا، ليس الأمر كذلك وإلا لهانت المسألة.

فعُدت أُلحّ متسائلاً وقد ضاق صدري بثرثرتها قائلاً: ولكن ما الذي حدث؟ هلاّ أخبرتِني؟

فأجابت قائلة: لقد ماتت بيلا في أثناء نومها! تناولت قدراً مضاعفاً من دواء منوم فماتت. مساكين هؤلاء الأطفال! أنا ما زلت أبكي منذ سمعت النبأ.

- ولكن كيف عرفت الأمر؟

لاحظت من ركن عيني أن بوارو كفّ عن فضّ رسائله وأدار عينيه إلى ناحيتي مترقّباً، وقالت الآنسة لاوسون: لقد اتّصل بي مدير الفندق، أعني فندق كونستون الذي انتقلت إليه بيلا؛ فقد وجدوا اسمي ورقم هاتفي مدوّنَين على رقعة ورق في حقيبتها. أليس الأمر فظيعاً يا كابتن هيستنغز؟

فسألتها قائلاً: هل أنت متأكدة من أن موتها كان قضاء وقدراً وليس انتحاراً؟

- أتظن أنها انتحرت؟ لقد كانت المسكينة في أقصى درجات اليأس، ولكنني صارحتها بأنني سأتنازل لها عن جزء من ثروتي

فسُرّي عنها وطابت نفساً، فلماذا تنتحر بعد ذلك؟

- وما هو الدواء المنوم الذي تناولته؟

- لقد قال لي مدير الفندق إنها تناولت حبوب الكلورال. نعم، الكورال. هل تعتقد يا سيد هيستنغز أن...

كانت الوسيلة الوحيدة إلى التخلّص من ثرثرتها هي أن أعيد السماعة مكانها، ثم التفتّ إلى بوارو لأُفضي إليه بما سمعت، ولكنه لوّح لي بيده ليسكتني وقال وهو ينهض واقفاً: حسبك؛ فقد عرفت كل ما تريد أن تقول. لقد كنت أتوقّع لها هذه النهاية. لنمضِ إلى الفندق فوراً.

فقلت: إن مدير الفندق يقرّر أن الحادث كان قضاء وقدراً.

فقال بوارو: لا يا هيستنغز، إنها لم تمُت قضاء وقدراً... لقد انتحرت.

* * *

قال لنا مدير فندق كونستون حين قابلناه: إن السيدة بيترز (وهو الاسم الذي انتحلته بيلا لنفسها) نزلت في فندقي مع أولادها عند ظهر اليوم السابق، وفي الساعة الرابعة جاء إلى الفندق رجل بعث برسالة إليها في غرفتها، وبعد بضع دقائق نزلت السيدة بيترز بحقائبها وبصحبتها أطفالها فخرجت مع الزائر بعد أن أخبرت كاتب الاستعلامات أن يحتفظ لها بغرفتها لأنها ستعود بعد قليل، وفي السابعة مساء تناولت عشاءها، وكانت تبدو هادئة الأعصاب لا يعتريها أي اضطراب، ثم صعدت إلى غرفتها.

وصمت مدير الفندق كي يلتقط أنفاسه ثم استطرد قائلاً: حين

دخلت الوصيفة إليها في الصباح وجدتها جثة هامدة، ثم دُعي الطبيب على الفور فقرّر أنها ماتت منذ بضع ساعات إثر تناولها جرعة مضاعفة من منوم الكلورال. وقد عثرنا في حقيبتها على رقعة فيها اسم الآنسة لاوسون ورقم هاتفها فاتّصلنا بها على الفور وأخبرناها بما حدث.

فسألت مدير الفندق عن أوصاف الرجل الذي صحبته السيدة تانوا إلى الخارج مع أطفالها، فلما سردها عليّ قلت لبوارو: إنه ليس زوجها بكل تأكيد.

فقال بوارو: كيف يمكن أن يخطر لك أنها ترضى أن ترافق زوجها إلى الخارج بعد أن بذلت أقصى جهدها في الفرار منه يا هيستنغز؟!

- إذن مَن يكون ذلك الرجل؟

- صديق تثق به.

وفي غرفتها لم نجِد أثراً للرسالة التي بعث بها زائرها المجهول إليها، بل وجدنا رمادها في منفضة لفافات التبغ.

فقال بوارو: إن الرسالة لم تُحرَق وحدها، بل أُحرق معها التقرير الذي عهدت به إليها كي تقرأه. ومع ذلك فليس لهذا أهمية. والآن، هيا بنا لنقابل الأحياء من الأسرة، فهم وحدهم الذين يعنيني أمرهم.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كان خمسة من أفراد الأسرة مجتمعين في فيلاّ ليتل غرين وهيركيول بوارو يتصدّر القاعة وظهره مستند إلى المدفأة، فها هي تريزا جالسة على الأريكة، وأخوها شارل فوق المسند وقد أحاط كتفيها بذراعه، وهذا هو الدكتور تانوا متهالك في مقعد وعيناه محمرّتان، أما الآنسة لاوسون ربّة المنزل فكانت جالسة إلى منضدة صغيرة في ركن الغرفة مستندة إليها بمرفقيها شعثاء الشعر عيناها متضرّجتان احمراراً من فرط البكاء، أما الدكتور دونالدسون فكان جالساً على أحد المقاعد في مواجهة بوارو وهو جامد الوجه تطلّ من عينيه نظرة توحي بالمشاكسة.

وأخذت أتأمّل الوجوه الماثلة أمامي وأسائل نفسي: أي هؤلاء هو القاتل؟ مترقباً بشوق ونفاد صبر اللحظة التي يزيح فيها بوارو القناع عن وجه القاتل المجهول. ثم تنحنح بوارو ليجلي مسالك صوته وقال: سيداتي وسادتي، لقد اجتمعنا هنا للتحقيق في وفاة إميلي أراندل التي ماتت في اليوم الأول من شهر أيّار الماضي (مايو)، ويوجد في هذا الصدّد أربعة احتمالات، وهي إما أن تكون قد ماتت ميتة طبيعية، أو ماتت نتيجة حادث، أو أنها انتحرت،

أو أنها قُتلت على يد شخص مجهول. ولم يجرِ أي تحقيق في وفاة الآنسة أراندل لأن الظواهر كانت تدلّ على أن وفاتها كانت لأسباب طبيعية، وقد حرّر الدكتور غرينغر شهادة الوفاة على هذا الأساس. والمألوف في حالة الاشتباه في سبب الوفاة أن نُسارع إلى طلب تشريح الجثة، ولكنني امتنعت عن اتخاذ هذا الإجراء لأسباب معيّنة لديّ، أهمها أن موكّلتي (أعني الآنسة أراندل) ما كانت لترضى بهذا؛ إذ علمتُ من طباعها ما أدركت منه أنها كانت تتوقّى إثارة الفضائح.

وبعد ذلك سرد بوارو على القوم ما كان من أمر الرسالة التي تسلّمها من الآنسة أراندل بعد وفاتها بشهرين ثم ما كان من أمر اكتشافه للمسمار المدقوق في جدار الدرج. ثم تنحنح مرّة أخرى وقال: والآن، سأسرد عليكم ما دار بذهن الآنسة أراندل عن حادث سقوطها من أعلى الدرج طبقاً لما أتخيّله. لقد ظنّت الآنسة أراندل، كما ظن الجميع، أنها داست على كرة الكلب بوب فانزلقت قدمها واختّل توازنها فوقعت، ولكن بعد أن صفا ذهنها من أثر الحادث أدركت أنه لا شأن للكرة بسقوطها. لقد أدركت بجلاء أن شخصاً ما حاول أن يقتلها، وبعد ذلك انتقلت أفكار الآنسة أراندل إلى التساؤل عمّن يكون ذلك الشخص؟ عمن يكون ذلك القاتل المجهول؟

وكان في البيت سبعة أشخاص عند وقوع الحادث، وهم اثنان من الخدم ووصيفتها لاوسون وأربعة من الضيوف، ومن هؤلاء السبعة شخص واحد يمكن استبعاده إذ لا مصلحة له في موتها، وأعني به الآنسة لاوسون؛ إذ إن حادث السقوط من أعلى الدرَج وقع في أثناء سريان الوصيّة الأولى التي لا تستفيد منها الآنسة

لاوسون شيئاً، كما استبعدَت الآنسة أراندل الخادمتين من دائرة الاشتباه أيضاً لأنها تثق بهما وتعرف مدى تفانيهما في خدمتها. إذن لم يبقَ أمام الآنسة أراندل إلا الضيوف الأربعة، وأحدهم هو الذي حاول أن يقتلها دون شكّ، وثلاثة من هؤلاء يستفيدون من موتها لأنهم هم الذين ستؤول إليهم ثروتها، أما الرابع فسيستفيد بطريقة غير مباشرة، وأعني به الدكتور تانوا.

وكانت الآنسة أراندل في موقف صعب شديد الحرج لأنها امرأة تقدّس الروابط العائلية وتأبى أن تثير فضيحة حول اسم الأسرة إن هي أبلغت الشرطة، ولهذا قرّرت أن تكتب إليّ وتسألني العون. وليس هذا فقط، بل إنها قرّرت أن تتّخذ إجراءً آخر، وهو إلغاء الوصية وتحرير وصية جديدة. وفي رأيي أنها أرادت أن تعبّر بكتابة الوصية الجديدة عن نقمتها على أسرتها جميعاً؛ إذ كانت ترتاب فيهم بلا استثناء وتشتبه في أن أحدهم هو الذي حاول أن يقتلها.

والسبب الثاني الذي دفعها إلى كتابة الوصية الجديدة وحرمان أهلها من ثروتها هو أنها أرادت أن تقول لهم إن أحداً منهم لن يستفيد من موتها لأنهم لن يرثوا شيئاً، فعليهم إذن أن يكفّوا عن محاولات قتلها وأن يتركوها تعيش في سلام. وقد تجلى لي بوضوح من الخطاب الذي كتبته إليّ أنها استبعدت من دائرة الاشتباه الوصيفة والخادمتين لأنها طلبت منّي أن ألتزم الكتمان وأن لا أتخذ أي إجراء من شأنه إثارة فضيحة حول اسم الأسرة وشرفها. وأعتقد أن شكوكها اتجهت ناحية شارل أراندل لأنه هو رمز الأسرة الذي يحمل اسمها، فبيلا أراندل تنتسب إلى زوجها الدكتور تانوا وتحمل اسمه، وتريزا لن يختلف أمرها عن ذلك عندما تتزوج، كما أنها كانت تعرف عن يقين أن شارل شاب مستهتر أفّاق لا يتورّع

عن فعل أي شيء من أجل المال، ومما ضاعف اشتباهها في شارل أراندل أنه وقع نزاع بينهما قبل حادث الدرج بيومين حينما طلب منها شارل شيئاً من المال فرفضت، فقال لها باستخفافه المعهود إنه يحسُن بها أن لا تضنّ بمالها على أسرتها وإلا فإن أحدهم قد يفكر في أن يزيحها من الطريق. وبعد هذا الحديث، أو هذا التهديد إن شئتم، وقع حادث الدرج بعد يومين اثنين، وهكذا استقرّ في ذهن الآنسة أراندل أن شارل هو الذي دبّر مكيدة الدرج.

وهكذا سارت الأحداث تباعاً إلى أن انتهى الأمر بزيارة المحامي بيرفيس لها يوم الثلاثاء الموافق الحادي والعشرين من نيسان (أبريل) وتوقيعها الوصية الجديدة. وفي عطلة الأسبوع التالية لحادث الدرج زارها شارل وأخته تريزا، فحدّثت الآنسة أراندل ابن أخيها عن الوصية، بل إنها أطلعته عليها، وكان هدفها من ذلك أن تكون معرفته بأمر الوصية الجديدة هي صمام الأمان الذي يحميها ضد محاولات القتل؛ فإن شارل، وهو الذي كانت الآنسة تشتبه فيه أساساً، لن يفكر في قتلها ما دام لن يرث ولن يستفيد شيئاً من وراء موتها.

وكانت الآنسة إميلي أراندل تعتقد بأن شارل سينقل نبأ الوصية الجديدة إلى أخته تريزا، ولكنه لم يفعل وكتم الأمر عنها، فلماذا كتمه؟ أعتقد أن سبب الكتمان هو شعور شارل بالذنب وبمسؤوليته عن تحرير الوصية الجديدة. وكان لدى شارل سبب قوي يبرّر شعوره بالذنب دون شكّ، فإما أن يكون السبب هو محاولته قتل عمّته أو أن يكون السبب هو مجرّد اختلاسه بضعة جنيهات من دُرج المكتب مما أثار سخط عمّته عليه وعلى الأسرة جمعاء، ولذلك لم يحدّث شارل أخته تريزا عن الوصية الجديدة لأنه كان يشعر

بأنه هو الذي دفع عمّته إلى تحريرها، سواء بسبب محاولة القتل الكبرى أو بسبب جريمة السرقة التافهة، وكان يأمل خلال ذلك في أن تعدِل عمّته عن رأيها وتعود إلى الوصية القديمة.

ما رويته لكم حتى الآن كان تعبيراً عن رأي الآنسة أراندل في هذه الأحداث طبقاً لما تخيّلته عنها، أما الآن فأريد أن أشرح لكم وجه نظري الشخصية. لقد اشتبهت الآنسة أراندل في سبعة أشخاص، وهم الوصيفة والخادمتان، ثم شارل وأخته تريزا، وبيلا وزوجها الدكتور تانوا. أما أنا فأضفت إليهم شخصاً ثامناً وضعته موضع الاشتباه، وأعني به الدكتور دونالدسون الذي تناول العشاء معهم ليلة وقوع حادث الدرج، وإن كنت لم أُقحمه في مسرح الأحداث إلا أخيراً بعد أن علمت بنبأ تلك الزيارة.

وقد قسّمت هؤلاء المشتبَه بهم السبعة إلى مجموعتين، المجموعة الأولى تضمّ ستة أشخاص يستفيدون من موت الآنسة أراندل، إذ تؤول إليهم ثروتها حتى ولو بطريق غير مباشر كما هو شأن الدكتور تانوا، أما المجموعة الثانية فمكوّنة من شخص واحد هو الآنسة لاوسون التي لا تستفيد شيئاً من موت الآنسة أراندل، وذلك بالنسبة إلى حادث الدرج الذي وقع في أثناء سريان الوصية القديمة قبل كتابة الوصية الجديدة.

وهنا يجب أن لا يفوتنا أن نلاحظ أن الآنسة لاوسون استفادت من حادث الدرج لأنه كان السبب في كتابة الوصية الجديدة واستيلائها على ثروة الآنسة أراندل، فهل معنى ذلك أن الآنسة لاوسون هي التي دبّرت مكيدة الدرج حتى تثير حفيظة الآنسة أراندل وسخطها ضد أسرتها؟

فهتفت الآنسة لاوسون وقاطعت بوارو قائلة: أنا لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، ليس من الإنصاف أن توجّه إليّ هذا الاتهام يا سيد بوارو.

فقال بوارو: صبراً يا آنسة صبراً، وأرجو أن لا تقاطعيني.

ثم استطرد في الحديث قائلاً: كنت أتساءل عمّا إذا كانت الآنسة لاوسون هي التي دبّرت حادث الدرج حتى تثير سخط الآنسة أراندل على أسرتها. وكان هذا الاحتمال قائماً بالطبع، ولكن إذا كان الأمر كذلك فقد كان يجب على الآنسة لاوسون أن تبلغ سيدتها أن الكلب بوب قضى ليلته خارج البيت، أو بعبارة أخرى أنه لم يلعب بالكرة بعد إيداعها دُرج المكتب، إذن لا بدّ أن يكون أحد أفراد الأسرة هو الذي أخرج الكرة من الدُّرج ووضعها في أعلى الدرج حتى تدوس عليها الآنسة أراندل بقدمها وتسقط من أعلى الدرج. ولكن الذي حدث هو العكس، وذلك أن الآنسة لاوسون كانت حريصة أشدّ الحرص على أن لا تعلم سيدتها أن الكلب بوب بات خارج البيت، وهذا الكتمان يبعد الشبهة عن أفراد الأسرة، وهو أمر لا يتفق مع القول بأن الآنسة لاوسون دبّرت مكيدة الدرج لتثير الشكوك حول أفراد الأسرة، ولذلك استنتجت أن الآنسة لاوسون بريئة ولا شأن لها بمكيدة الدرج.

فغمغمت الآنسة لاوسون بعدما سمعت هذه الكلمات قائلة: شكراً لك يا سيدي.

فاستطرد بوارو قائلاً: ولقد قلت في نفسي إنه إذا كان أحدٌ قد حاول أن يقتل الآنسة أراندل وفشل فلا بدّ من أن يقوم بمحاولة أخرى طبقاً للتجارب العملية، وقد أوحى إليّ موت الآنسة أراندل

بعد أسبوعين من حادث الدرج بأنه من المحتمل أن محاولة القتل الثانية قد وقعت ونجحت، ولهذا بدأت أقوم ببعض التحرّيات.

لقد أكّد لي الدكتور غرينغر أن موتها كان طبيعياً، وكان في قوله هذا هدم لنظريتي التي تقول بقتلها. ولكنني تحرّيت عمّا حدث قبل أن ينزل بها المرض فعرفت أنها في تلك الليلة اجتمعت في بيتها مع الآنسة لاوسون والأختين تريب في جلسة لتحضير الأرواح، وقد وردت عبارة أثارت اهتمامي على لسان إحدى الأختين تريب، فقد قالت إنه بعد إظلام الغرفة واستحضار الروح ظهرت هالة من النور حول رأس الآنسة أراندل، وقد أكّدت الأخت الثانية واقعة هالة النور، أما الآنسة لاوسون فقالت إنها رأت شريطاً من النور يخرج من فم الآنسة أراندل ويتشكّل إلى هالة حول رأسها، أي أن مصدر الهالة هو ذلك الشريط الذي خرج من فمها. وسواء كان هذا أو ذاك فإن النتيجة واحدة لا تختلف، وهي أن هالة قد تكوّنت، وبصرف النظر عن نظرية تجسّد الأرواح فإن تلك الهالة لا يمكن أن تتكوّن إلا إذ كانت أنفاس الآنسة أراندل مشبّعة بالفوسفور في تلك الليلة، أي أن تلك الهالة ناشئة عن تجمّع بخار الفوسفور الناتج عن أنفاس الآنسة أراندل.

إن ما رأته الآنسة لاوسون والأختان تريب حول رأس الآنسة أراندل لم يكن هالة من النور بل كان البخار الفوسفوري المنبعث من جوفها مع أنفاسها. ولكن من أين جاء هذا الفوسفور إلى جوف الآنسة أراندل؟ إنه ناتج من حالة تسمّم، ولكن هل ظهرت أعراض التسمّم الفوسفوري على الآنسة أراندل؟ نعم، ظهرت، فكيف لم يفطن طبيبها إلى هذه الأعراض؟

الآنسة أراندل كانت مصابة بالصفراء، أي الوباء الكبدي،

ومن أعراضه اصفرار البشرة والعينين. وأعراض التسمّم الفوسفوري مشابهة لهذا، لذلك لم يفطن الطبيب إلى أنه أمام حالة تسمّم وليس أمام حالة مرض الصفراء. وهكذا كانت خطّة القاتل مُحكمَة شديدة الإتقان، حيث استغلّ مرض الآنسة أراندل المزمن بالصفراء لتسميمها بمادة تتّحد أعراضها مع أعراض الصفراء كي لا يفطن الطبيب إلى ما حدث. وهذا يدلّ على ما يتميّز به القاتل من دهاء، ولذلك كان من السهل على الطبيب أن يُخدَع، ولا سيما وأنه دأب منذ سنوات على علاج الآنسة أراندل من الصفراء، فإذا ما شكت المرض قيل إنها مصابة بالصفراء وليس بحادث تسمّم.

وهكذا تأكّدت من شهادة لاوسون والأختين تريب أنه توجد جريمة قتل قد ارتُكبت. وكان السؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا هو: مَن القاتل؟ وكان أول شيء استقرّ عليه رأيي هو استبعاد الخادمتين من نطاق الاشتباه؛ فلا عقليّتهما ولا خبرتهما يمكن أن تسمح لهما بتدبير هذه الجريمة العلمية المعقّدة لما طُبعتا عليه من بساطة وسذاجة، وكذلك استبعدت الآنسة لاوسون، فلو أنها هي التي دبّرت هذه الجريمة لما أطنبت وثرثرت عن هالة النور لأنها ظاهرة كفيلة بأن تكشف سرّ الجريمة، ثم استبعدت شارل أراندل لأنه رأى من الوصية أنه لن يستفيد شيئاً من وفاة عمّته.

وبعد ذلك بقيت لدي تريزا والدكتور تانوا والسيدة تانوا والدكتور دونالدسون الذي اكتشفت أنه تناول العشاء مع الأسرة ليلة حادثة كرة الكلب. وفي البداية استعرضت الرجلين، فكلاهما طبيب وعلى قدر كبير من الذكاء، وكلاهما يستطيع أن يدرك بسهولة أن الفوسفور هو السمّ المناسب في حالتنا هذه لمشابهة أعراضه مع أعراض الصفراء. ولكن حادثة كرة الكلب لم تكن من

طراز الجريمة التي يمكن أن يفكّر بها عقل رجل؛ فهي ليست تدبيراً رجالياً بل هي جريمة ذات طابع نسائي. وقد أشرت من قبل إلى أن الشخص الذي دبّر مكيدة الدرج وفشل سيحاول أن يقوم بمحاولة أخرى للقتل دون شكّ، ولهذا استبعدت الطبيبين من الاشتباه لأنهما لا يمكن أن يفكرا في جريمة ذات طابع نسائي.

ثم أخذت أدرس سلوك تريزا فرأيت أنها فتاة جسورة طائشة ليس لديها وازع من الضمير وحياتها مليئة بالجشع والأنانية، وقد عاشت حياة مترفة نالت فيها كل ما تصبو إليه نفسها حتى نضبت مواردها وأصبحت هي والرجل الذي تحبه في حاجة ماسّة إلى المال، كما أنني كنت قد أدركت من أحاديثها معي أنها تعرف أن عمتها ماتت مقتولة، كما أدركتُ أن أخاها شارل يشتبه في أنها هي القاتلة مما جرى أمامي من أحاديث، كما كانت هي نفسها تشتبه في أنه هو القاتل. وقد حاول شارل أن يجعلها تقول أمامي إنها تعرف بأمر الوصية الجديدة، فلماذا قام بهذه المحاولة؟ لأنها إن كانت تعرف أنه توجد وصية جديدة فإن أحداً لن يشتبه في أنها القاتلة، ومن الناحية الأخرى كانت تريزا تعتقد بأن شارل كاذب في ادعائه بأن عمّته أطلعته على الوصية الجديدة، واعتبرت هذا الادعاء من جانبه محاولة فاشلة للدفاع عن نفسه وإثبات براءته.

ويوجد أمر آخر، ففي حديث جرى بيني وبين شارل أراندل أبدى تحرّجاً من النطق بكلمة زرنيخ عندما كنا نتحدّث عن السموم، فصمت في سياق الحديث ليفكر في كلمة أخرى ثم استعمل كلمة أخرى هي الإستركنين، مع أن أول كلمة تخطر بالبال عند التحدّث عن السموم هي التسمّم بالزرنيخ لأنه هو الاسم الشائع على الألسن. وفي حديث جرى بعد ذلك بيني وبين

البستاني عرفت أن شارل تحدّث إليه عن مبيد قوي للآفات فذكر له البستاني مبيداً يدخل الزرنيخ في تركيبه، وما إن سمعت هذا حتى أدركت السبب في تحرّج شارل من استعمال كلمة زرنيخ في حديثه معي حتى لا يثير انتباهي إلى هذا السمّ الذي طالما تحدّث عنه مع البستاني و...

فانبرى شارل يقول مقاطعاً باستخفاف ومرح: لقد فكّرت في قتل عمتي حقاً، ولكن لم يكن لديّ الشجاعة.

فقال بوارو مؤمّناً: لقد درست نفسيّتك وطباعك فأدركت أن مجال جرائمك مقصور على التافه منها كتزوير شيك بغير رصيد أو أشياء من هذا القبيل، أما القتل فلا... إن إزهاق الأرواح ليس من أعمال شارل أراندل.

وصمت بوارو بُرهة ثم استطرد حديثه عن مقتل إميلي أراندل قائلاً: والآن أعود إلى حديثي عن تريزا أراندل. لقد استقرّ في ذهني أنها هي القاتلة، وكان هذا في البداية، ولكن خطرت في ذهني اعتبارات أخرى بدّدت هذا اليقين، من ذلك أن تريزا أمضت حياة هادئة حريصة على تجنّب المشاكسات لم تصطدم فيها بإنسان، فكيف تصطدم مع عمتها إلى درجة تدفعها إلى ارتكاب جريمة قتل؟ نعم. إن تريزا أراندل لم تكن من الطراز الذي يقتل، إلا إذا كان ذلك في حالة هياج وغضب طبعاً، ورغم ذلك كنت على يقين من أن تريزا أراندل هي التي سرقت مبيد الحشرات من كوخ البستاني.

فقالت تريزا فجأة: سأصارحك بالحقيقة يا سيد بوارو. لقد فكّرت في ذلك، وفعلاً أخذت من صندوق البستاني كمية من المبيد خفية ولكنني لم أجرؤ على استعمالها. أنا مولعة بحب

الحياة، فكيف أزهق روح إنسان وأحرمه من نعمة الحياة؟

فأومأ بوارو مؤمّناً وهو يقول: صدقت. لقد كان هذا هو ما خرجت به من دراسة شخصيتك وخفايا نفسيتك.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: والآن لم يبقَ لدي من المشتبه بهم إلا بيلا، أعني السيدة تانوا. منذ أول لقاء لنا تبيّنت أنها كانت خائفة، وقد شعرت هي أنني أدركت ذلك فعمدت على الفور إلى اتخاذ صورة واضحة للمرأة الخائفة على زوجها، ثم عمدت إلى تعديل خطّتها فيما بعد، وقد فعلت ذلك ببراعة ودهاء! ولكن هذا التغيير لم يخدعني ولم يجُز عليّ؛ فالمرأة إما أن تكون خائفة على زوجها أو تكون خائفة من زوجها، أما أن تكون خائفة عليه وخائفة منه في وقت واحد فهذا أمر مستحيل. وكان هذا أحد العوامل التي أثارت شكوكي فيها، وأخيراً تظاهرت السيدة تانوا بأنها خائفة من زوجها، وأدّت هذا الدور ببراعة إلى درجة أن هُرعت ورائي إلى بهو الفندق مدّعية أنها تريد أن تفضي إليّ بسر خطير، وطبعاً كانت تعلم أن زوجها سوف يلحق بها حتماً، فلما جاء في أعاقبها غيّرت مجرى الحديث متظاهرة بأنها لا تريد أن تتكلّم أمام زوجها، فوضح لي على الفور أنها لم تكن تخاف زوجها وإنما كانت تكرهه.

وبدأت أحلل نفسيتها وشخصيتها. إنها امرأة بسيطة تحيا حياة بسيطة مملّة عاجزة عن أن تلفت أنظار الرجال وهي التي تتمنّى أن يفتتنوا بها، ولكن شيئاً من ذلك لم يقع مما جعلها تعتقد بأنها ستظل عانساً حتى يوافيها الأجل، ولذلك رضيت بأن تتزوج رجلاً لا تحفل به حتى لا تبقى عانساً. وزاد الطين بلة أن مضى بها زوجها إلى بلاد الحبشة فحُرمت من مظاهر المدنية الحديثة، ثم أنجبت أطفالاً فتعلّقت بهم، وكان هذا هو كل نصيبها من دنياها، حرماناً من

الحياة المتحضرة وتكريس وقتها لأولادها وكأنها جارية أجيرة.

وهكذا بدأت بيلا تكره زوجها لأنه كان السبب في حياتها المجدبة الحافلة بالملل، وزاد من كراهيتها له أنه أخذ مالها وضارب به وخسره في المضاربات، ولكن شيئاً واحداً كان يلقي بصيصاً من الضوء على حياتها المظلمة الكالحة، ذلكم هو موت عمتها الآنسة إميلي أراندل. في يوم ما سوف تموت عمّتها وتُتيح لها من الحياة المترفة الناعمة ما تصبو إليه، وهكذا وثبت إلى ذهنها فكرة الجريمة لأنها لا يمكن أن تصبر حتى تموت عمتها ميتة طبيعية بل عليها أن تبادر إلى قتلها، وحسبها أنها انتظرت حتى اليوم.

وكانت بيلا على معرفة كافية بالمعلومات الكيمائية لأنها كانت تعاون أباها في معمله وأبحاثه قبل وفاته، وبلا شكّ كانت تعرف أن تناول الفوسفور يُنتج نفس الأعراض التي تنشأ عن مرض الصفراء، وهو الداء الذي تعاني منه عمّتها. إذن فالفوسفور هو أنسب السموم وأشدّها ملاءمة لقتل عمتها، فإذا ما ظهرت عليها أعراضه نُسبت بداهة إلى مرض الصفراء. ولما جاءت تزور عمتها وتقيم معها في عطلة الأسبوع تبدّت لها وسيلة أخرى أبسط وأسهل للقتل، وهي كرة الكلب والخيط المشدود عبر أعلى الدرج.

وقامت بالمحاولة ولكنها أخفقت. وأعتقد أنه لم يَدُر بخلدها أن الآنسة أراندل اكتشفت سرّ سقطتها بل حسبت أنها آمنت بأنها داست على الكرة فوقعت كما آمن الجميع، ولكن السيدة أراندل أدركت حقيقة الأمر، واتجهت شبهاتها إلى شارل أراندل وحده بدليل أنها أطلعته على الوصية الجديدة كي يعلم أن موتها لن يفيده بشيء فلا يعود إلى التفكير في القيام بمحاولة جديدة لقتلها.

وهكذا عادت بيلا إلى فكرتها القديمة وهي قتل عمّتها بالفوسفور، ولم يكن أسهل عليها من تنفيذ هذه الخطّة بأن تفتح الكبسولات التي اعتادت عمتها أن تتناولها وتضع فيها المادة السامة ثم تعيد إغلاقها كما كانت. ولما كان مفعول هذا السم ليس فورياً بل ينتج أثره بعد عدّة أيام فإن الشبهة لن تتّجه إليها لأنها لن تكون مقيمة في فيلاّ ليتل غرين عندما ينزل الموت بعمّتها، ومع ذلك فقد احتاطت للأمر فزوّرت وصفة طبية بإمضاء زوجها الطبيب لشراء الكلورال، وهو دواء منوم قوي المفعول، حتى إذا اتجهت إليها الشبهات تناولت جرعة كبيرة من الدواء المنوم لتقضي على حياتها بنفسها بدلاً من أن تقع في يد العدالة.

لقد ارتبتُ في السيدة تانوا منذ أول لحظة، ولكن لم يكن لديّ دليل ضدها ولهذا كنت مضطراً أن أعمل بحذر، وكنت أتوقّع أن تحاول ارتكاب جريمة جديدة لأنها كانت تتمنّى أن تقتل زوجها حتى تتخلّص من الحياة المملّة التي تعيشها. لقد آلت الثروة إلى الآنسة لاوسون حقاً، ولهذا أخذت ترمي حولها شباكها وتضغط على ضميرها محاولة أن تجعلها تنزل لها عن جزء من ثروتها و...

فقطع صوتُ الآنسة لاوسون وهي تنشج بالبكاء حديثَ بوارو وقالت: أنا امرأة شريرة، أنا امرأة شريرة! لقد استبدّ بي الفضول حين كتبت الآنسة أراندل وصيتها الجديدة وتمنّيت أن أعرف فحواها، فاغتنمت فرصة نومها ذات يوم وفتحت الدُّرج واطّلعت على الوصية، وقد ذُهلت حين وجدت أنها تركت كل شيء لي. نعم، كل شيء، وحينئذ كنت أحسب أن ثروتها لا تزيد على بضعة آلاف من الجنيهات ولم أكن أتصوّر أنها تبلغ ثلث مليون جنيه!

وفي أثناء مرضها طلبت منّي أن آتيها بالوصية الجديدة من دُرج المكتب، فخطر لي أنها ستمزّقها وبذلك أُحرَم من الثروة، مع أنني أحق بها من أقاربها لأنني أنا التي قمت على خدمتها وتفانيت في رعايتها، ولذلك كذبت عليها وقلت لها إن الوصية ليست في دُرج المكتب وإنها أعطتها لمحاميها دون شكّ.

وصمتت الآنسة لاوسون بُرهة لتجفّف دموعها ثم استطردت قائلة: يا إلهي! كم كنت امرأة شريرة! ولكنني الآن سأكفّر عن ذنبي، سأُشرك الجميع معي في الثروة، سأخصّ نفسي بنصيب يكفيني ثم أوزع الباقي على الورثة الشرعيين... هذا هو الذي سيُشعرني بالسعادة الحقيقية. وقد قلت لبيلا حين زارتني إنني سأقدّم إليها نصف ثروتي.

وعندما صمتت الآنسة لاوسون عن الحديث عاد السيد بوارو إلى الكلام فقال: ولهذا السبب كانت السيدة تانوا تعارض في اتخاذ أي إجراء لإلغاء الوصية، وتظاهرت أمام زوجها كذباً أنها توافقه على رأيه بضرورة العمل على إلغائها، وكان هدفها في تلك الأيام يتركّز في أمرين هما التخلّص من زوجها والحصول على الثروة، وبذلك تستطيع أن تعيش في ترف ونعيم بعيدة عن ذلك الزوج الذي تمقته وحتى لا يستولي على ثروتها الجديدة ويبددها كما سبق أن فعل بما ورثته عن أبويها. وأعدّت خطتها على أساس إيهامي بأن زوجها يريد أن يقتلها، ولكنني كنت أعلم أن منوم الكلورال القاتل في حوزتها وأن من المحتمل جداً أن تقتل زوجها في أية لحظة لتتخلّص منه مدّعية أنه أفرط في تناول المنوم.

وقد ذكرت لي الآنسة لاوسون في سياق حديثها أنها رأت الآنسة تريزا أراندل راكعة فوق رأس الدرج وأنها تعرّفت عليها من

الحروف الأولى من اسمها المحفورة على الدبوس المثبت بصدر رداء النوم الأخضر، وقد أربكتني هذه الواقعة وحيّرتني لأن اتهام تريزا أراندل بالجريمة كان مخالفاً لمنطق الأحداث، ولكنني ما لبثت أن اهتديت إلى سرّ هذا اللغز، فالحرفان اللذان رأتهما الآنسة لاوسون هما حرفا «ت ا»، ولكن فاتها أن المرآة تعكس الصورة وتقلبها، أي أن الحرفين في حقيقتهما وأصلهما هما «ا ت»، فلمّا عكستهما المرآة رأتهما الآنسة لاوسون باعتبارهما الحرفين «ت ا» أي تريزا أراندل، فمَن تكون المرأة صاحبة الدبوس المحفور عليها الحرفان «أ ت»؟ إنهم يطلقون على السيدة تانوا اسم بيلا، ولكنه اسم تدليل في الحقيقة أما اسمها الحقيقي فهو إيزابيلا، أي أن الحرفين«ا ت» يرمزان إلى اسمها الذي هو إيزابيلا تانوا، وبذلك تكون المرأة التي رأتها الآنسة لاوسون منحنية فوق رأس الدرج هي بيلا، أي إيزابيلا تانوا، وليس تريزا كما توهّمت استناداً إلى حروف الدبوس المعكوسة، وهذا هو ما كان متّفقاً مع منطق الأحداث وتدرّجها العقلي في ذهني.

ولكن ما العمل؟ كيف أتصرّف؟ لو أنني اتهمت بيلا لما كان لديّ دليل يؤيّد شكوكي، ولذلك أعددت تقريراً مطولاً ذكرت فيه كل تلك الوقائع، فلما التقيت بالسيدة تانوا وزعمَت أنها خائفة من زوجها وأنه يريد أن يقتلها قدّمت إليها التقرير الذي سردت فيه أحداث القضية وطلبت منها أن تقرأه وأن تتّصل بي في اليوم التالي، وحين قرأت التقرير أدركت أن سرّها قد كشف وأن مكيدتها لم تعُدْ خافية، فما كان منها إلا أن تناولت جرعة كبيرة من الكورال وماتت منتحرة حتى تتفادى الوقوع في يد العدالة ودخول السجن.

فانبرى الدكتور تانوا يقول: أنت على حق يا سيد بوارو. نعم،

لقد أرادت أن تقتلني؛ ففي الأيام الأخيرة حاولت أن تقنعني أكثر من مرّة بأن أتناول منوم الكلورال.

فقال بوارو: كانت تلك نيتها المبيتة ضدّك، فقد زوّرت الوصفة الطبية بإمضائك للحصول على الكلورال.

فغمغم الدكتور تانوا: هذا أمر عجيب! أهذه المرأة المطيعة المستسلمة الخانعة تُقدِم على كل هذا؟!

فقال بوارو: كل هذا الاستسلام لم يكن إلا جزءاً من التمثيلية كي لا تتّجه إليها الشكوك، وقد نجحت في ذلك فعلاً وأشارت أصابع الاتهام إلى غيرها، ولكنني جئت في الوقت المناسب فكشفت القناع عن سرّها. صحيح أنه لم يكن لديّ دليل يؤيّد استنتاجاتي المنطقية، ولكن القدَر لم يكن غافلاً، فقد انتحرت القاتلة، وبذلك تكون العدالة قد اقتصّت لنفسها.

* * *

(تمت)